

بين الشيشان والشام...دروسٌ وعبر
دراسة سياسية مختصرة للتجربة الشيشانية والمآل الشامي
بقلم: عدنان حديد - حفظه الله-
مؤسسة بيان
www.bayaaan.net

بين الشيشان والشام...دروسٌ وعِبر

دراسة سياسية مختصرة للتجربة الشيشانية والمآل الشامي

الشيخ عدنان حديد -ثبته الله-



إلى إخوةٍ في اللّه، جمعنا الحب فيه والجهاد في سبيله من غير لقيا

الفهرس

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين؛ ثم أما بعد:

فإن الحركة التاريخية التي تبغي تغيير مسار التاريخ، وتحويله عن منحناه الهابط بالأمة الإسلامية إلى مهاوٍ سحيقة، لا تصل إلى هدفها، ولا تحقق مبتغاها بمجرد رفع الشعارات البراقة، والبذل الأعمى الذي لا يُدرى في أي مصبٍ يكون؛ بل إن الأساس للعمل هو العلم بالواقع تفصيلاً ووضع كافة الاستراتيجيات والخطط المحكمة المنضبطة اللازمة لمواجهةدرى في أي مصبٍ يكون؛ بل إن الأساس للعمل هو العلم بالواقع تفصيل كافة احتمالات هذا الواقع.

إن العمل السياسي الذي لا يسبقه ويواكبه تنظيرٌ واضحٌ دقيق عن الأدوات والأهداف والعقبات المنتظرة، وعن الآليات الواجب اتباعها للتغلب على هذه العقبات؛ هو عملٌ – وإن نجح في حين – فإنه محكومٌ عليه بالفشل في أحيانٍ أخرى كثيرة، بل إن نهايته تكاد تكون معلومة متكررة على مدار التاريخ.

ولنا في هذا الزمان عبرةٌ واضحةٌ ظاهرة، فعندما كانت الحركة الجهادية تعمل ارتجالاً على امتداد أقطار المعمورة دون استراتيجية جامعة، أو تصورٍ محكم، بل بالاعتماد في بعضٍ من المواضع على رد فعلٍ ثأري شخصي يشعل جبهات قبل أوانها بسنوات؛ كان الفشل مصاحباً لحركتها اللهم إلا في بعض مواضع يسيرة، حتى التجأ جل مجاهدي هذه الدنيا إلى بلاد الأفغان نهاية القرن المنصرم.

وعندها اجتمع أولو العقول والألباب على دراسة سبب الفشل، وتشخيص الأمراض المتمكنة من جسد الأمة وجماعاتها المجاهدة على حدٍ سواء، وبدأوا في وضع الآليات، وإحكام الخطط، وتوحيد الرؤى، وتنظيم أدوات المواجهة؛ حتى كانت الانطلاقة المباركة في الحادي عشر

مـن سـبتمبر التـي تعيـش مختلـف السـاحات في ظلالهـا الوارفـة إلى اليوم.

فانتـشرت الثغـور، وسـاح المجاهـدون في الأرض، واجتـذب هذا الأمـر الفئام الصالحـة من هذه الأمـة؛ ومـن لم يُقـدّر لـه الالتحـاق بسـاحات الـشرف، مـا كان منـه أدنى مـن الدعـم بالمـال والرأي والمشـورة والدعوة والتحشـيد.

لكـن اتسـاع الأمـر، والتضييـق العالمـي عـلى الحركـة المجاهـدة، والارتقـاء المتتابـع لقاداتهـا إثـر الضربـات الصليبيـة المتتاليـة؛ أدى إلى إعادة ظهـور كثيرٍ مـن الأدواء القديمة التي تخلص منها الجسـد المجاهـد قبـل بضع سـنين؛ فأصبـح التقييـم والـدرس والمراجعة المسـتمرة للحركة والمسـار أمـرٌ نادر بـين النخـب فضـلاً عـن عامـة الأفـراد، وإن قـام بهـذه الفريضـة قائـم تُجوهـل في أحسـن الأحوال، ليصبـح تكـرار الأخطـاء في كثـيرٍ مـن السـاحات السـمة البـارزة التـي لا تخفى عـلى لبيب.

إن هـذا التكـرار المسـتمر لأخطـاءٍ وعثرات دفـع المسـلمون لتعلمها مسـبقاً الثمن الفـادح الباهظ مـن دمائهـم وأعراضهـم وبلادهـم، لهو مـن جنس خيانـة الأمانة وعـدم القيـام بحقها القيـام الأمثل الـذي يُعـذر بـه المـرء أمام ربـه؛ بل صرنـا ننطلـق من نقطـة الصفـر عند الـشروع في أي مـشروع غير عابئـين بمـيراثٍ سُـقي بالدمـاء، قـد تركه لنا سـلفنا عـلى الطريـق لينير لنـا الدرب.

فأضحـت الدماء تُسـكب، والآلاف تُسـحق، والأرض تُخلى مـن أهلها دون تحقق المـردود المنتظر؛ وليـس لأحـدٍ هنـا أن يجـادل بكون النـصر والهزيمة مـن الله وأنه مـا علينا سـوى العمل، فهـذه قاعدةٌ مسـلّمٌ بهـا، ولكـن يصـح الاحتجـاج بها فقـط عند اسـتفراغ الوسـع وبـذل كافـة الأسـباب الفكرية والواقعيـة، لا عند التخـاذل والتباطؤ والفشـل المتتابـع دون عظة.

إن المـرء إذ ينصـح لله، ولرسـوله، ولأئمـة المسـلمين، وعامتهـم، مشـفقاً، مخلصـاً، يبتغـي الرشـد والفـلاح والصـواب لهـذه الحركـة التاريخيـة الفارقة في مسـار هـذه الأمة؛ فهو يقـوم بـدوره المنوط به والـذي لـولاه لأصبح في سـيماه كجند الطاغـوت المصفقين لكل فعلٍ أو سياسـة تصدرعن رؤوسـهم المضلين.

إن الأخطـاء التاريخيـة والبنيويـة والهيكليـة تتكـرر من سـاحةٍ إلى سـاحة، وتنتج نفس الإفرازات

العفنـة التـي تتجـرع الأمـة مرارتها عـلى مدار سـنين، ولنا في الشيشـان والشـام عـبرةٌ وعظة.

فلم يزل الجرح الذي سـببه المشروع «القاديروفي» في شـمال القوقاز نازفاً خيرة شـباب الإسـلام في تلـك البقعـة الطيبـة المباركة؛ حتـى ظهر المـشروع «الجولانوفي» في الشـام حاملاً ذات المعالم والسـمات والمـآل دون حـراكٍ أو فعلٍ مؤثر على المسـتوى الفكـري والعملي.

وكـون الخطـأ المـؤدي إلى كلتـا الكارثـتين واحـد وهـو خطـأ اسـتراتيجي هيـكلي في بنيـة الحركـة المجاهـدة – وإن كان في حالـة الشـام أفـدح بكثـير كون الفسـاد قد خرج مـن أعماق وجودهـا الميداني – فإنـه صـار مـن الواجـب علينـا أن يقوم من يسـبر غور هـذا الأمـر، ويبرز الحالـين للمقارنـة –وإن كانـت مقتضبـة– للاسـتفادة مـن الإيجابيـات وتعظيمهـا، ووضـع اليـد عـلى مكامـن الخلـل المتكررة لتداركهـا ومنـع وقوعها مسـتقبلاً.

إن الجهـاد الشيشـاني بأعوامـه الممتـدة الطويلـة مثّل مدرسـةً جامعة عسـكرياً وسياسـياً واجتماعياً وجيوسياسـياً؛ غـير أن هـذه المدرسـة لم تجـد مـن أبنـاء الأمـة الطلبـة النجبـاء الذيـن يثنـون الركـب عنـد معارفهـا ومناهلهـا العذبـة؛ إلا أن الواقـع الـذي تعيشـه السـاحة الشـامية –التـي كانـت حقيقة ولا زالـت بـأن يبـذل كل عاقـل مـن هـذه الأمة دمـاءه ومـداده ومالـه وجميع ما يقـدر عليه في سـبيل نصرتهـا– يحتـم –وإن كان متأخـراً– العودة لهذه المدرسـة للوقوف عنـد محطاتها، وبيان أسـباب الحال الـذي وصلـت إليه.

وإني في هـذه الدراسـة –إن صحـت التسـمية– التـي أتممتهـا عـلى عجـل، لسـت معنيـاً بالحـصر التاريخـي لأحـداث ووقائـع جهـاد المسـلمين ومآسـيهم المتعاقبـة عـلى مـدار مئات السـنين في شـمال القوقـاز، فهـذا الحصر والتأريخ له فرسـانه الذيـن يعكفون عليـه ويفرّغون له الأوقـات، ويبذلون فيه الأعـمار حتـى لا تذهـب مآثـر المسـلمين ومغازيهم ومآسـيهم طي النسـيان؛ إنـما أقف عنـد الأحداث المحوريـة الهامة وأسـتقي منهـا الفائـدة والعبرة خصوصـاً إن كانت متصلـة بواقعنا الشـامي المعاصر، لتكويـن صـورةٍ شـاملة عـن الأحـداث المتتابعـة التـي أدت إلى ظهـور المـشروع «القاديـروفي»، ودور العوامـل الذاتيـة والموضوعيـة في هـذا الظهـور والتمكـن المؤقت –إن شـاء الله–.

مـع التأكيـد مسـبقاً وقبل الخـوض في محاور الدراسـة على محـددٍ هام، وهـو أن المقارنة بـين تجربتي

الجهاد الشيشاني والجهاد الشامي لا تستوجب التطابق التام بينهما خاصة من ناحية الوضع الجيوسياسي؛ حيث تتفوق الساحة الشامية في هذا الجانب بعوامل نجاح تفوق مئات المرات ما كان متوفراً للمجاهدين في القوقاز المُطوّقين حد الاختناق بالنفوذ الروسي.

وقد قسمتُ الدراسة إلى ستة محاور كالتالي:

أ-المرحلة التاريخية

ب-الحرب الشيشانية الأولى

ج-مرحلة ما بين الحربين: الإعداد والتجهيز

ء-الحرب الشيشانية الثانية

هـ-الحقبة الرمضانية

و-عودةٌ إلى الشام


المحور الأول

المرحلة التاريخية

دخل الإسلام إلى شمال القوقاز منذ عصر الخلافة الراشدة، ونظراً لطبيعة المنطقة الوعرة والبعيدة عن حواضر الإسلام، مر انتشار الإسلام وتمكنه من ربوع هذه الأرض بمراحل متدرجة وصولاً إلى الحقبة المغولية التي حكم فيها المغول المسلمون –بعد إسلام زعيم القبيلة الذهبية بركة خان– تلك المنطقة وأرسوا دعائم الإسلام فيها.

وبعد زوال حكم الدولة المغولية المسلمة التي وصل نفوذها إلى حكم إمارة موسكو معقل نصارى الروس، خضعت منطقة شمال القوقاز لنفوذ الدولة العثمانية؛ حيث ظلت بلاد القفقاس مطمعاً للإمبراطورية الروسية التي كانت في طور التشكل والتمدد، لتعاني المنطقة من الهجمات النصرانية الروسية ابتداءً من القرن السادس عشر.

غير أن التحول الرئيسي في الإمبراطورية الروسية حدث منذ عهد الإمبراطور «بطرس الأكبر» بداية القرن الثامن عشر الميلادي؛ وهو العصر الذي بدأ معه التوسع الحقيقي للنفوذ الروسي نحو أراضي الدولة العثمانية، إلا أن الصدام الكبير في منطقة القوقاز كان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إبان عهد الإمبراطورة «كاترينا العظيمة» والذي شهد توحش النفوذ الروسي في شمال القوقاز، ما أنتج حركةً جهاديةً واسعة بين عوام المسلمين تحت قيادة الإمام منصور في ظل تخاذل الدولة العثمانية عن القيام بواجباتها تجاه رعاياها من المسلمين.

وقد روى الرئيس الشهيد سليم خان يندربييف –رحمه الله– بعضاً من ملامح هذه المرحلة في كتابه «الشيشان.. السياسة والواقع» قائلاً:

" وكما لاحظنا من قبل فإن أول إمامٍ للقوقاز كان الشيخ منصور وهو شيشاني من قرية ألدي،

وقد نجح في توحيد كل شعوب شمال القوقاز ضد العدوان الروسي ومع أن القوى المتواجهة لم تكن متساوية ومتكافئة ولم تتحقق المساعدات المتوقعة من السلطان العثماني في تركيا وأسوأ من ذلك فإن البكوات والأمراء الذين يقودون الأمم الأخرى في القوقاز ما لبثوا أن خانوه بدافع المصلحة الذاتية وكان نتيجة ذلك هزيمة الشيخ منصور، الذي توفي فيما بعد في سجن قلعة شليسربورج في سانت بطرسبرج حيث تم سجنه على أثر استيلاء الروس على قلعة أنابا»

وهذه الوقائع تعود بنا إلى الواقع الشامي المعاصر..

فالدولة العثمانية لم تكتفِ بالتخاذل عن الدفاع عن مسلمي شمال القوقاز ضد الهجمة الصليبية الشرسة التي استهدفت استيطان أراضيهم واحتلالها؛ بل تخاذلت حتى عن دعم الحركة الشعبية المقاومة بقيادة الإمام منصور، في خطأ استراتيجي دفعت ثمنه بعد ذلك من أراضيها وأراضي المسلمين بعد انهيار حائط الصد القوقازي أمام مطامع موسكو التوسعية، وحتى لم تكف شرها عن حركته المجاهدة بعد أن خانه أمراؤها وبكواتها في شمال القوقاز تحقيقاً لمصلحتهم الخاصة الآنية..

وهو موقف يكرره اليوم من يدعي زوراً وراثة الدولة العثمانية في الأناضول؛ فلم يكتفِ بترك المسلمين يُذبحون على المذبح النصيري دون حراكٍ أو دعم حتى بدافع إبعاد الخطر النصيري الرافضي عن شعب الأناضول العدو التاريخي للدولة الصفوية، بل تآمر مع أعداء المسلمين في الشام على احتواء حركتهم الجهادية وإخمادها في مهدها قبل أن تهدد مصالح كبار أسياده؛ وهو موقفٌ سيعلم أهل الأناضول عواقبه بعد حين..

غير أن جهاد المسلمين في شمال القوقاز لم يتوقف بمقتل الإمام منصور في سجون الروس؛ فخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر شهد القوقاز حدثاً محورياً في تاريخه بانطلاق ثورة الإمام شامل الداغستاني التي استمرت لمدة ٢٥ سنة بين عامي ١٨٣٤-١٨٥٩م؛ وعلى الرغم من حرص الإمام المجاهد على طلب المساعدة من الدولة العثمانية إلا أن السلطان في إسطنبول قرر تكرار الخطأ التاريخي وتخاذل ثانيةً عن دعم حركة الإمام شامل ضد الغزو الروسي؛ لينتهي الأمر بأسره عام ١٨٥٩م على يد الروس.

وبعد عشر سنوات في الأسر أطلق القيصر الروسي سراح الإمام شامل قبل وفاته ببضع سنين بعد بعض الوساطات الإسلامية كي يذهب لأداء فريضة الحج، وعندها طلب السلطان العثماني مقابلته في إسطنبول، حيث قيل أنه لما ناوله السلطان يده، قال الإمام شامل:

«لقد انتظرت في القوقاز ٢٥ سنة لتمتد إليّ هذه اليد، واليوم يستحق كل العالم الإسلامي تأنيباً وتوبيخاً مشابهاً»

كلماتٌ تعبر عن حجم الحسرة والألم الذي عاشه مجاهدو القوقاز عامة والإمام شامل خاصة جراء التخاذل العثماني المتكرر عن مجرد النصرة والدعم لا الدفاع والحماية..

فبعد إخماد ثورة الإمام شامل، عمد الروس إلى البدء في تغيير المعالم الديموغرافية لشمال القوقاز بعد أن دانت لهم السيطرة عليه، فشرعوا في نقل السكان الروس النصارى من المناطق الروسية الداخلية للعيش في شمال القوقاز بدلاً من السكان المسلمين الذين أجبروهم على الرحيل بأعداد هائلة إلى الدولة العثمانية.

ولم يكن أثر هذه الهزيمة مقتصراً على شمال القوقاز، فبعد فراغ الروس من احتلال شمال القوقاز وتهجير سكانه المسلمين، تفرغوا للتالي من الأهداف العثمانية بعد انهيار السد الذي طالما منعهم من الانسياح بسهولة طوال عشرات السنين نحو أراضي الخلافة المريضة التي باتت اليوم على مرمى حجر.

وقد بلغت ذروة هذا الانسياح في الحرب العثمانية الروسية بين عامي ١٨٧٧-١٨٧٨م، التي تكبدت فيها الدولة العثمانية هزائم ثقيلة نجم عنها توقيع معاهدة برلين المذلة التي أفقدت الدولة العثمانية جل أراضيها الأوروبية، وأسفرت عن إخضاع أراضي البوسنة والهرسك لسلطة الإمبراطورية النمساوية المجرية، وهي الأرض التي تجرعت المرارات والمآسي منذ ذلك الحين..

وهكذا فإن الخطأ الاستراتيجي الواحد قد يكلف دماءً وأعراضاً ومعاناةً تمتد لقرون في مساحات شاسعة من أراضي المسلمين...

ومرت السنوات الثقال على مسلمي شمال القوقاز حتى لاح لهم أملٌ كاذبٌ...

فمع انهيار الدولة الروسية القيصرية عام ١٩١٧م باندلاع ثورة أكتوبر البلشفية، عمد قادة الثورة الشيوعية إلى الطمأنة المؤقتة للشعوب المحتلة من المركز الروسي باقتراب نيل حريتهم إن هم وقفوا إلى جوار الثورة ضد النظام القيصري البائد؛ وهو الوهم الذي سيطر على عقول نخبةٍ من أهل القوقاز المسلم.

فشكلوا الكيانات السياسية الهادفة إلى تحقيق الاستقلال القوقازي الكامل، ولم يستغلوا حالة الضعف والحرب الأهلية التي ضربت الإمبراطورية الروسية المترامية ثقةً في وعود قادة الثورة الحمراء، الذين ما إن انتهوا من حربهم ضد الجيش الأبيض الموالي للقيصر حتى وجهوا جيشهم الأحمر الدموي نحو القوقاز لسحق وتدمير حراك الشعوب المسلمة.

لتعطي القوقاز درساً من جديد للمتأمل في دعمٍ من عدوه ينصره عليه وينقص من سطوته ونفوذه !!

وتحت نير الحكم السوفييتي ، عانى المسلمون أشد مما عانوه أيام الحكم القيصري البائد، فيحاولون الانتفاض من جهة، لتأتي الضربات القاصمة من جهةٍ أخرى والتي أضعفت مع مرور الزمن أي كيانٍ سياسي لأهل الإسلام في تلك البقاع..

وفي العام ١٩٤٤م، قرر ستالين إنهاء أي وجود إسلامي فاعل في شمال القوقاز؛ واستغلالاً للحرب العالمية الثانية الدائرة رحاها آنذاك قرر تهجير الشعوب الإسلامية في شمال القوقاز إلى المناطق البعيدة المقفرة في سيبريا ووسط آسيا مركّزاً تهجيره على شعوب (الشيشان- الإنجوش- البلقار-الكراشاي) التي يعتقد أنها القوة المسلمة الرئيسية الفاعلة في تلك المنطقة؛ معللاً فعلته بدعم المسلمين في هذه البقعة للغزو النازي للبلاد..

وفي مشهدٍ مهيب أُخرج مئات الآلاف من المسلمين من بيوتهم قهراً وقسراً إلى منافيهم الإجبارية، يتساقط من بينهم من اختارهم الروس لتنفيذ المذابح الجماعية ترهيباً وانتقاماً، ومن لم يقدر على إتمام الرحلة الشاقة فسقط صريعاً في منتصف الطريق؛ ليبلغ تعداد قتلى المسلمين الجمع الغفير من الضعفاء والنساء والأطفال والشيوخ الذين قُدّروا بعشرات الآلاف من الشهداء..

ليصدر خروتشوف بعد موت ستالين بأربع سنوات عام ١٩٥٧م، قراراً بعودة من تبقى حياً من الشعوب المسلمة في المنفى إلى ديارهم نكايةً بحقبة سلفه الهالك، ورغبةً في وسمها بالطغيان والظلم.

ورغم هذه المآسي المهلكة التي تعرض لها المسلمون في القوقاز على مدار سني الحكم القيصري والسوفييتي على التوالي، غير أن هناك عاملاً عجيباً ساعد المسلمين على الصمود في وجه هذه الهجمة الاستئصالية الهادفة لإلحاق شمال القوقاز بأندلس مغرب الإسلام.

هذا العامل هو «الصوفية الجهادية».

مصطلح جديدٌ نوعاً ما على الأسماع، فما اعتدنا إلا سماع مصطلح «السلفية الجهادية"؛

غير أن الصوفية الجهادية التي قاتلت الإنجليز بالسودان في ثورة المهدي، وقارعت الإيطاليين في ليبيا على يد عمر المختار، ومرغت أنف الفرنسيين في الجزائر إبان جهاد الأمير عبد القادر؛ هي ذاتها -على ما بها من بدع- التي حفظت دين المسلمين في شمال القوقاز -وتحديداً في قلبه النابض الشمالي الشرقي- لعقودٍ طويلة جهاداً وتعليماً وتربية...

وقد أورد سيباستيان سميث شرحاً واقعياً لهذه الظاهرة في كتابه «جبال الله...الصراع على الشيشان» نقتبس جزءاً منه:

« عمل الصوفيون سراً لأن السلطات القيصرية منعت نشاطهم. ولاحقهم السوفيات دون هوادة لأنهم كانوا يعتبرونهم أعداء الدولة، وأنهم يقفون خلف الكثير من عمليات المقاومة. في الشيشان، يمكن رؤية الكثير من طقوس الدراويش، والذكر هذه الأيام. لكن ما زال الصوفيون يتسلحون استعداداً للحرب؛ الحرب ضد الروس.

الوضع مختلف في أنغوشيا، ورغم الشعور بانتشار الصوفية في ذلك البلد، إلا أن ذلك ليس واضحاً للعيان. وهم موجودون وغير موجودين في كل مكان. حالما يبدأ أي شخص بتوجيه الأسئلة، سينظر إليه الناس هناك نظرات غريبة، ولن يحصل سوى على بعض الأجوبة المقتضبة التي لا تشجع على طرح المزيد من الأسئلة. هل هم جهلة، أم أنهم لا يرغبون بالحديث بكل

بساطة؟ ولا تحصل على جواب على ذلك أيضاً. إنه جزء من الجدار الصوفي الذي أبعد جهاز الاستخبارات السوفياتي كي جي بي، والجدار الذي حمى المؤمنين خلال التهجير إلى آسيا الوسطى. إنه الجدار الموجود في روح أمة شمال القوقاز. تلك الروح التي عاشت بالرغم من تدمير روحهم الظاهرية.

تعتبر الحاج بطل واحدة من أشهر الجماعات الصوفية في أنغوشيا. فقد حصلت على نسخة مكتوبة من التعاليم والمعتقدات الروحية السرية بعنوان الصوفية في الاتحاد السوفياتي، لمؤلفيه ألكسندر بينيسين وإندرس ويمبوش. الحاج بطل هي: «الجماعة الجهادية الأنقى في كل الطريقة الصوفية». وتقودها عائلة بيلخوريف في قرية سورخوخي الأنغوشية، والتي فاقت سمعتها الآفاق. أنشأ بطل، الذي ذهب إلى مكة وأصبح حاجاً، الجماعة سنة ١٨٦٧م، وكرّس نفسه لقتال الروس الملحدين. حذا جميع أفراد الأسرة حذوه، ومات العشرات منهم على أيدي الروس أو السوفيات.

تحولت سورخوخي لتصبح متاهة من المنازل الأنيقة المبنية من الآجر والمزارع على سفح جبل خصيب. ولا وجود لإشارات عن المحاربين المتعصبين، أو الجماعات المناهضة للروس. في الحقيقة، يبدو المكان هادئاً ومزدهراً. سألت مع سائقي الأنغوشي أول قروي صادفناه: «هل تستطيع إرشادنا إلى المكان الذي يعيش فيه بيلخوريف؟» وقال: «في الأعلى هناك»، وهو يشير إلى طريق موحل يتعرج ضمن متاهة المنازل. حالما وصلنا إلى هناك، كان علينا أن نسأل مجدداً. «من هناك». ودخلنا في شارع أصغر من سابقه، لكن لا شيء يدل على أننا وصلنا. بدأت أفقد أعصابي مرة أخرى. إنه السؤال القديم ذاته: هل يجهلون الاتجاهات الصحيحة، أم أنهم لا يتكلمون؟ وسألنا مجدداً، وأخبرونا: «انتظر هنا».

قبل أن يمر وقت طويل، ظهر فتى حليق الرأس وقال: «من هنا». جرى نزولاً في الزقاق الموحل، وتبعناه ببطء بالسيارة إلى ساحة كبيرة، تشكّل نموذجاً للساحات في شمال القوقاز. خلعت حذائي ودخلت، وأجلستني امرأة في غرفة عالية السقف على أحد جدرانها سجادة وعلى الجدار الآخر صورة كبيرة لمكّة المكرمة.

عندما دخل أحمد بيلخوريف، وهوقائد جماعة الحاج بطل بالوراثة، كان أول شيء قام به هو واجب الضيافة، وسألني فيما إذا كنت أرغب بتناول الطعام أو شرب الشاي.

أراد لاحقاً أن يعرف كيف وجدته. كان من الواضح أنه لم يصدّق أنني ببساطة أخذت الاسم من كتاب غربي عن الصوفية. وبالطبع لم يكن الكتاب معي، ولم أستطع إثبات صحة ما أقول.

رغم أن بيلخوريف رجل عجوز، إلا أن يديه متينتان وقويتان. تحدّث معي في مواضيع شتّى، ونادراً ما أجاب على أسئلتي، ولكنه قال الكثير ولم أقاطعه. لقد سخر من الأميركيين، واليهود، والروس ومن الأوسيتيين خصوصاً، الذين وصفهم بخونة القوقاز لاحتضانهم المسيحية وروسيا. كان فخوراً بالأنغوش بشكل مبالغ فيه. «كنا أول الشعوب على الأرض». وعندما انتبه إلى أنني أسجل الملاحظات، ارتفعت حرارة حديثه، وسألني فيما إذا كان باستطاعتي العودة في اليوم التالي. عندها فقط لاحظت وجود عصبة ملتصقة تحت قبعة الصلاة من الخلف، وهي علاج تقليدي للألم. وقال لي: «لدي صداع».

في اليوم التالي، كان بيلخوريف ينتظر، وحالما جلسنا معاً، أخذ يخبرني عن ربّه، والضغينة التي حملها وسلفه التقي الحاج بطل، وأظهر لي صورة قديمة له يرتدي لباساً شركسياً أسود، ويبدو وجهه جميلاً لكنه قاسٍ قليلاً.

"عندما بدأوا بسحقنا، جعلنا ديننا أقوياء، ووحّدنا كشعب واحد. كنا نقتسم الخبز بيننا. في كازاخستان، إذا عرفنا بأي قرية ما جائعة، كنا نتسلل في الليل من خلف الحراس ونمنحهم الطعام. لقد جعلنا الله أقوياء".

"يقول القرآن الكريم أنه إذا جاء الكفّار إلى أراضيكم ودمّر شعبكم، يجب عليكم إعلان الجهاد، أو الحرب المقدسة. وهذا ما حدث في الشيشان وهنا. وخلال التهجير، جاء الروس بالجرّافات ودمّروا كل مقابرنا وآثارنا القديمة. لقد أرادوا تدمير ثقافتنا. لكننا عدنا وبنينا كل شيء من جديد. هم يدمّرون الشيشان مجدداً الآن. لكنهم لا يستطيعون هزيمة الشيشانيين والأنغوش، لأنهم دائماً ينتفضون ويأخذون بالثأر».

تابع قائلاً: «انتبه، قاتل الحاج بطل خارج هذا المنزل الجنود القيصريين لثلاثة أيام، وقُتل ٤٠ من أبنائه وأقاربه منذ ذلك الحين. قتل الشيوعيون والدي، ووضعوني في السجن لمدة ست سنوات ونصف في نورلسك».

تقع نورلسك في أقصى منطقة القطب الشمالي، وهي منطقة متجمدة دائماً. يرتبط اسمها بالنسبة للروس بالجحيم. «تركوني ٢٩ يوماً على أرضية خرسانية في منتصف الشتاء لأموت. لكنني بقيت على قيد الحياة. في إحدى المرات، كان هناك الكثير منا نحن الأنغوش معاً، وأقمنا الذكر في السجن. طلبت من الحراس بكل بساطة أن يبتعدوا عنا. لقد كانت تلك شؤوننا الخاصة كما تعلم».

"في سنة 1974، قمت بالحج إلى مكّة المكرّمة. كنت أول الشيشانيين أو الأنغوش الذي يقوم بتلك الرحلة. ثم أقنعتهم بأن يسمحوا لي باصطحاب الآخرين. في سنة 1975، أقنعت السلطات بفتح المساجد، بمعدّل مسجد واحد لكل منطقة. بدأنا تدريجياً بفتح المساجد في كل قرية، والمعاهد الإسلامية والمدارس. كان الإسلام يولد من جديد. لكنني لم أستعد الإسلام، لأنه كان موجوداً هنا على الدوام. كان هنا، سراً، طوال الوقت".

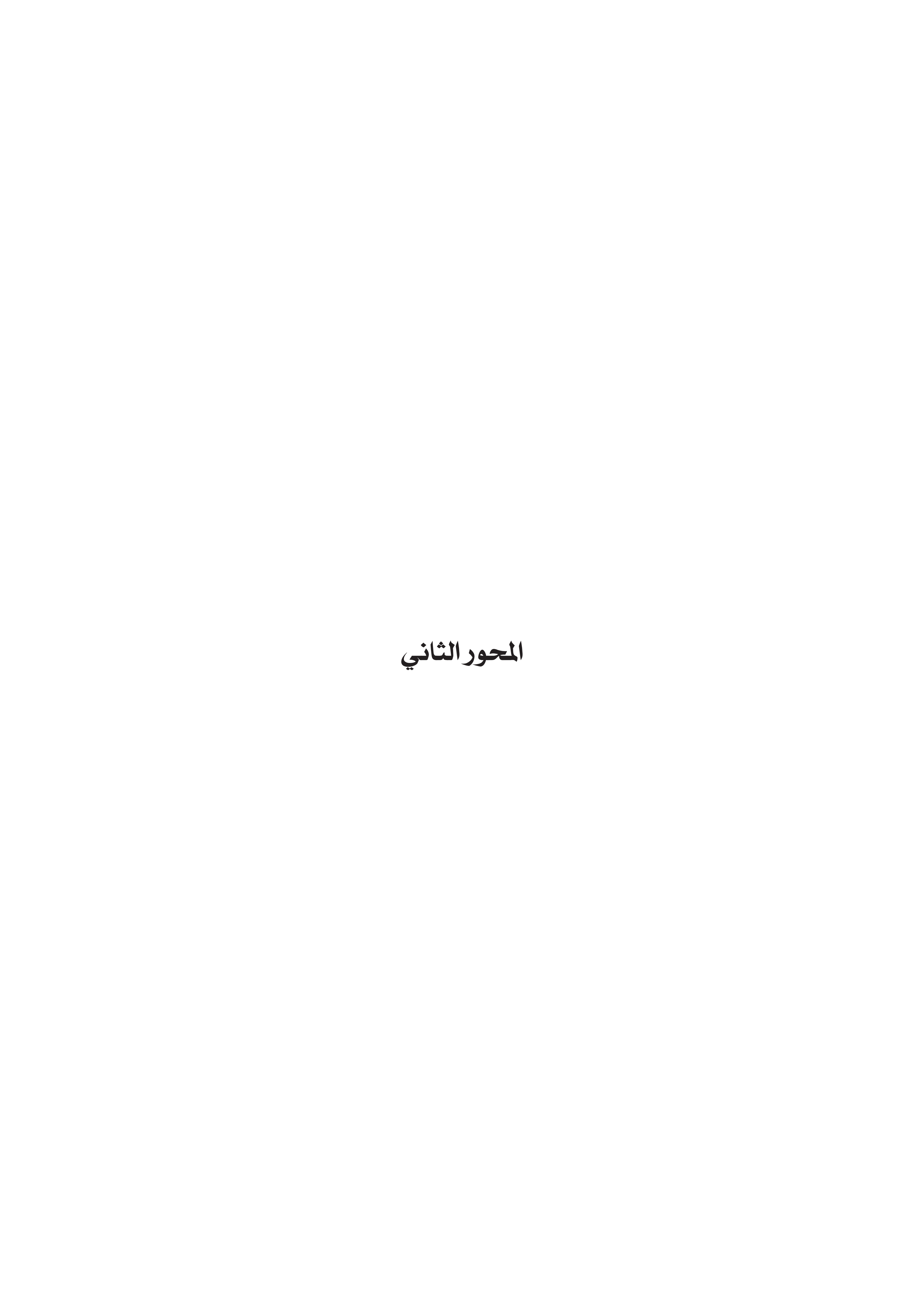
تزوج بيلخوريف ثلاث مرات. ولم تنجب أول زوجتين له الأطفال، فيما أنجبت الثالثة ستة. يقول إن الحاج بطل لا يستسلم بسهولة. فقد رأيت مسجده في القرية، والذي يعود تاريخ إحدى المآذن فيه إلى زمن الحاج بطل نفسه، فيما تم بناء المآذن الأخرى تحت رعايته. تغطي السجاجيد، من كل الألوان، الأرضية في الداخل، وهناك طابق في الأعلى، حيث يصلي الأطفال، وهو شبيه بالشرفة المرتفعة، ويمتد على مسافة ٥٠ متراً ومبني من أخشاب لامعة منقوشة وجديدة. في الساحة، هناك مدرسة، أو معهد ديني، وهي مليئة بالأطفال الصغار الذين يرتدون قمصاناً بيضاً، ويتعلمون العربية من شاب يافع يرتدي ملابس بيضاء أيضاً. وقفوا جميعاً على أقدامهم عندما دخلنا.

ذهبنا إلى المقبرة الواقعة على هضبة خارج سورخوخي، والتي يوجد عند مدخلها مسجد صغير تم بناؤه حديثاً للحجاج، الباب مقفل دائماً بصخرة صغيرة. الحاج بطل مدفون في آخر

المقـبرة، وتغطـي الكتابـات العربيـة شـاهدة قـبره، المطليـة باللـون الأخضر، ويوجـد فوق القـبر قبعة معدنيـة بلـون ذهبـي مصقـول، ويرقـد إلى جـواره زوجتـه وثلاثة مـن أبنائه.

عندمـا كنـا نغـادر البلـدة، توقفنا عند كومـة كبيرة من الحجـارة المنقوشـة إلى جانب الطريـق تماماً. إنهـا شـواهد قبور الأنغوش التـي تحطّمت خـلال التهجير. سـألت بيلخوريف فيـما إذا كان قبر الحاج بطـل قـد بُعثـر أيضـاً. وأجابنـي: «لا شيء يسـتطيع إلحـاق الأذى بتلـك الصخـور. سيفشـل كل من يحـاول، وسيشـعر كـما لو أنـه تلقى ضربـة على الـرأس. وسـتصاب عائلته بالأمـراض.» ”

وهكـذا حفظـت لنـا هـذه التنظيمات –عـلى ما بها مـن بدع– ديـن الله قائماً في شـمال القوقـاز حتى يتسـلم الرايـة جيـلٌ جديد تسـمح لـه معطيات الواقـع بمحاولـة إعادة الحق المسـلوب؛ وهـو الفصل الـذي بدأ مـع انهيار الاتحـاد السـوفييتي الهالك.



المحور الثاني

الحرب الشيشانية الأولى

مع تولي ميخائيل جورباتشوف الأمانة العامة للحزب الشيوعي السوفييتي، بدأ بتطبيق سياسته المزدوجة (الجلاسنوست – البيروسترويكا) أي الانفتاح وإعادة الهيكلة؛ وهي سياسة قائمة على الإصلاح السياسي الذي يتيح للشعوب المكونة للاتحاد السوفييتي مزيداً من الحرية في التعبير عن ثقافاتها وهوياتها المحلية التي طُمست إبان العهد الشيوعي ولم يكن مسموحاً لأصحابها بإظهارها أو الاستعلان بها؛ ومن جانبٍ آخر الإصلاح الاقتصادي من خلال تخفيف قبضة الدولة على الاقتصاد، والاتجاه بالاقتصاد الروسي المتداعي نحو النظام الرأسمالي.

وبمرور سنوات حكم جورباتشوف كان الاتحاد السوفييتي يزداد ضعفاً على ضعف ووهناً على وهن، وبحلول بداية العقد الأخير من القرن العشرين كانت شمسه تتجه إلى المغيب مع استقلال دول الأطراف تباعاً عن المركز في موسكو.

وفي هذه اللحظة الفارقة كان لقلب القوقاز النابض (الشيشان) موعدٌ مع التاريخ..

كان جوهر دوداييف الجنرال السابق في القوة الجوية السوفييتية، والقائد لقاعدة القاذفات النووية في إستونيا – إحدى الجمهوريات المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفييتي – قد استعاد هويته الدينية والقومية، واعترف بأن ماضيه الشيوعي الذي تضمن الجريمة الكبرى باشتراكه في قصف المسلمين في حرب أفغانستان قد آل به إلى الردة، وأن وقت التوبة قد حان بالعمل على تخليص بلاده من نير الاحتلال الروسي.

فتولى دوداييف قيادة «مجلس الشعب الشيشاني القومي المناهض للشيوعية» في نوفمبر ١٩٩٠م، للعمل على تحقيق الاستقلال الكامل غير المنقوص لجروزني عن موسكو التي أذاقت الشعب الشيشاني الأمرين لما يفوق المائة وخمسين سنة.

وبعد فشل الانقلاب الذي نفذه كبار جنرالات الجيش السوفييتي ضد نظام جورباتشوف للحفاظ على وحدة وبقاء الاتحاد السوفييتي في أغسطس ١٩٩١م على يد بوريس يلتسن رئيس روسيا المنتخب آنذاك، استغل جوهر دوداييف الفرصة وأعلن استقلال الشيشان وإجراء انتخابات رئاسية للجمهورية الناشئة خلال وقتٍ قصير بعد أن انقض على الحاكم الشيوعي في جروزني بدعمٍ من الشعب الشيشاني وسيطر على زمام الأمور.

وأثناء إعداد الروس للتدخل لمنع الجمهورية الناشئة من إجراء انتخاباتها الرئاسية الأولى في شهر نوفمبر ١٩٩١م، ظهر في المشهد قائدٌ عسكري جديد ليقلبه رأساً على عقب.

لقد كان لشامل باساييف –أحد أعظم قادة المسلمين العسكريين في العصر الحديث– رأيٌ آخر؛ فقد قام بخطف طائرة ركابٍ روسية وأجبرها على الهبوط الاضطراري في تركيا قبل أن يطير بها إلى جروزني ويفرج عن الركاب الروس بعد مفاوضات أقنعت القيادة الروسية المضطربة في موسكو بزعامة يلتسين أن تأجيل المواجهة خصوصاً مع الانتقال السياسي المتذبذب هو الخيار الأمثل؛ وهو ما حدث حيث تأجل الصدام إلى بداية الحرب الأولى عام 1994م.

وهذا العمل السياسي غير المتوقع لشامل باساييف والذي جنّب الجمهورية الناشئة مواجهةً مبكرة لم تكن لتحتملها وأعطاها فسحةً من الوقت تستغلها في التجهز والتهيؤ للحرب الآتية لا محالة؛ هو أول الدروس التي أعطاها شامل والتي سوف تستمر طيلة فترة مواجهته للروس التي امتدت لخمس عشرة سنة، هذه الدروس التي تتمحور حول عنوانٍ واحد «التفكير خارج الصندوق»، ذلك الصندوق الذي لا يرغب عدوك أن تخرج عنه حتى يتمكن من احتوائك والقضاء عليك؛ وهو التفكير الذي لا يتقنه سوى العظماء من القادة الذين يغيرون مجرى التاريخ..

وأثناء فترة حكمه، عبر جوهر دوداييف غير مرة بوضوح لا يحتمل الشك ولا المداراة عن اتجاهه الإسلامي البحت، وقد أدرك أن الإسلام هو الأمل الوحيد لهذا الشعب للنجاة من استعبادٍ روسي دام عقوداً متطاولة، حيث يقول جوهر دوداييف في هذا السياق:

"إن الله حينما حدد لنا القوانين لكي نعيش بها فإن عدم الاعتراف بها أمر مرفوض، وقيام دولة مسلمة يحكمها القرآن أمل أرجو أن يتحقق، ولكن المصارحة هنا واجبة؛ فالشعب اليوم

غير جاهز لمثل هذه الدولة بسبب ما عاناه من تأثير ضد دينه ونفسيته طوال استعماره، ولابد من إعداد جيل مثقف إسلامياً وسيكون قادراً على إجبار أي حكومة على إقامة هذه الدولة، إن الجيل الكبير وأنا واحد منه يعتبر جيلاً فاسداً، ونحن مهتمون بإصلاح أنفسنا وتربية الجيل الناشيء، ويجب عدم إغفال أن الشعب الشيشاني قناعاته تامة بأن طريقه هو الإسلام، ولقد أفسحنا المجال لتدريس الصغار، وأسست المدارس لتؤدي رسالتها بجوار المسجد. والشعب مستعد من الناحية الروحية لتقبل الشريعة الإسلامية، ولكن علينا أن نوفق دائماً بين الوعي والعاطفة»

وعلى إثر إعلان الاستقلال بدأ قطاعٌ من الروس المستوطنون في الداخل الشيشاني بالهجرة العكسية نحو الداخل الروسي خشيةً من انتهاء قبضة موسكو الحديدية التي كانت تضعهم في أعلى المناصب الحكومية، وتجعل منهم طبقةً نبيلة تحكم «جيرانها» من المسلمين، حيث بلغت نسبة الهجرة الروسية العكسية في الفترة الممتدة بين إعلان الاستقلال ونشوب الحرب الأولى ٨, ١١٪.

وفي العام ١٩٩٤م، كان على يلتسين خوض حرب الشيشان لإعادة فرض السيطرة على الجمهورية «المتمردة» وذلك للعديد من الظروف الذاتية والموضوعية التي حتمت تلك الخطوة، ولعل أبرز هذه العوامل يتلخص في ثلاث نقاط:-

أ-تثبيت أقدامه في مواجهة القوميين الروس الناقمين على سقوط الاتحاد السوفييتي.

ب-إثبات جدارته بالحكم، وصلابة موقفه تجاه أي حركة انفصالية داخل «الاتحاد الروسي» خاصة إن كانت إسلامية النزعة حيث يمكن أن تؤدي إلى استقلال مزيدٍ من الأقاليم الخاضعة لسيطرة موسكو.

ج-إحكام السيطرة على الشيشان للحفاظ على تدفقاتها البترولية، والأهم من تلك التدفقات تأمين مسارات نقل النفط من بحر قزوين والتي تمر بالجمهورية الصغيرة.

لذلك حاول يلتسين القضاء على نظام جوهر دوداييف من خلال قوات «المعارضة الشيشانية» التي استثمرت فيها موسكو طيلة الفترة بين ١٩٩١-١٩٩٤م، حيث دعمتها ببعض وحدات

الجيش الروسي لتقود غزواً محدوداً وغير رسمي يستهدف تنفيذ انقلاب سريع على نظام جوهر دوداييف في جروزني وتنصيب رموز «المعارضة» حكاماً جدداً.

إلا أن محاولة غزو جروزني انتهت بخسارةٍ فادحة لموسكو ووقوع القوات الروسية والقوات الشيشانية التابعة لها بين قتيلٍ وأسيرٍ وفار، ما سبب حرجاً بالغاً لنظام يلتسين المضطرب بالأساس؛ وتحول الغزو الفاشل من أداة مفترضة لتثبيت الحكم إلى عاملٍ مزعزعٍ له، فاتخذ يلتسين قرار الحرب الشاملة بعبور عشرات الآلاف من جنود الجيش الروسي للحدود الشيشانية بهدف إحكام السيطرة على البلاد بالقوة.

وبعد سقوط المدن الرئيسية تحت الضغط العسكري للجيش الروسي الضخم، وانحياز المجاهدين الشيشان إلى الجبال والمناطق الأكثر قابلية لقتال العصابات، وقعت واقعتين أرى من المهم إيرادهما لتشابههما أو إن شئت قلت تطابقهما مع واقعنا المعاصر وخاصة الواقع الشامي.

أما الواقعة الأولى والمتعلقة بخيانة بعض القرى وتحالفها مع الروس في بداية الحرب فيوردها سيباستيان سميث في كتابه «جبال الله... الصراع على الشيشان» قائلاً:

«بقيت أوروس مارتان التي كان لقادتها تاريخٌ في معارضة دوداييف خارج الحرب منذ البداية، ونتيجة لذلك تمتعت بأمان فريد من نوعه في ذلك الاضطراب الكبير، وتضخم عدد سكانها حتى أصبح أكثر من ٥٠٠٠٠ شخص. خارج قرية غويتي، والتي تقع على مسار التقدم الروسي وتمتلك قوات مسلحة قوية معادية لدوداييف، تناقش الكبار بحدة مع مجموعة من المقاتلين الشيشانيين ومع بعضهم البعض. لقد كانوا أمة واحدة، ولكنهم انقسموا الآن للأبد، وكان الزعماء يرتدون معاطفهم وقبعاتهم الطويلة، فيما كان المحاربون اليافعون يرتدون ثيابهم الفضفاضة البيضاء وأحذيتهم الملوثة بالطين. مثل هذه القرى كانت خائنة بالنسبة للبويفكس»

لقد مثلت هذه القرى الصورة الأولية للمشروع «القاديروفي» الخياني الذي بدأ تنفيذه أول الحرب الثانية؛ فهذا المشروع لم يكن ليُكتب له النجاح لولا هذه اللبنات التي تكونت وظهرت خلال الحرب الأولى والتي وإن انتهت بانتصار المجاهدين على الروس إلا أنها حملت في طياتها بذور هزيمتهم اللاحقة.

وبالنسبة للواقعة الثانية، فهي حادثة قرية ساماشكي الهادئة التي لا يقطنها سوى بضعة آلاف من المسلمين، وككل قرى الشيشان تسلح رجالها للدفاع عن دمائهم وأعراضهم أمام الزحف الروسي الصليبي الذي لا يترك أخضراً ولا يابساً إلا وأتى عليه.

وبعد انحياز المجاهدين عن المدن الرئيسية كما ذكرنا ولجوئهم إلى القرى والجبال، انضم جمعٌ من المقاتلين المنحازين إلى العشرات من أهل القرية للدفاع عنها، وفي أحد الأيام ودون سابق إنذار هاجمت القوات الروسية القرية فما كان من المجاهدين إلا الكمون لها وإيقاع الخسائر الفادحة بمعداتها وأفرادها وصدهم عن الدخول للقرية.

وبالطبع، جُن جنون الجيش الروسي الذي نصب الأسلحة الثقيلة حول القرية وأمطرها بالقذائف والنيران التي أسقطت عشرات القتلى والجرحى بين السكان العزل، غير أن الانتقام لم يتوقف عند هذا الحد، فقد أرادت القيادة الروسية أن تكون تلك القرية عظة وعبرة لغيرها من القرى إن هي فكرت مجرد تفكير في مقاومة الغزو الصليبي، كما أرادوا لجروزني من قبل أن تكون عبرة لغيرها من المدن.

فضرب الجيش الروسي حصاراً محكماً حول القرية مهدداً بإبادتها إن لم يُسلّم المقاتلون أسلحتهم ويستسلموا استسلاماً غير مشروط، فأجمع كبراء القرية من غير سابقة خيانةٍ معدة سلفاً كما في الواقعة الأولى بالطلب من المقاتلين الآتين من خارج القرية أن يغادروها لـ «نزع ذرائع» الجيش الروسي في الهجوم على القرية الصغيرة التي لا تستطيع الصمود أمام هذا الحشد الجرار، ظانين أن الخضوع الجزئي قد ينجيهم من سيف عدوهم.

ولم يبق في القرية إلا العشرات من أبنائها المسلحين بعتادٍ لا يكاد يصمد لبضع ساعات، إلا أن الجيش الروسي استمر في حصاره الطويل واشترط الاستسلام الكامل غير المنقوص لعدم اقتحام القرية واستباحتها استباحةً كاملة، وهو ما حدث عندما اقتحمت الآليات الثقيلة القرية ذات يوم مبيدةً أهلها بغير رحمة، موقعين مئات القتلى بين أهلها العزل بعد أن دانت لهم السيطرة عليها تماماً إذ لم يستمر القتال مع من بقي من أبناء القرية إلا لزمنٍ يسير؛ فأُنتهكت الأعراض، وأُحرقت النساء أحياء، وذُبح الأطفال، وقُتل العجزة على فرشهم داخل بيوتهم دون أي رادعٍ أو صاد...

والعجيب الذي تحتار له عقول ذوي الألباب هو تكرار ذلك المشهد اليوم في الشام ولكن على نطاقٍ أوسع بكثير من تلك القرية التي كانت وادعة؛ فيظن بعض الظانين أنهم إن أطاعوا عدوهم في نزع مخالب أسودهم الذين لطالما ذادوا عن العرين، سيتركهم دون عقابٍ أو استئصالٍ أو استعباد؛ ومخيمات المسلمين المشردين بالملايين خير جوابٍ على تلك الوساوس والظنون الشيطانية.

ومع استمرار ضغط الآلة العسكرية الروسية على المجاهدين الشيشان، وسقوط الحصون الواحد تلو الآخر، وُضعت القيادة السياسية والعسكرية الشيشانية في الزاوية، ولم يكن أمامها كثير خيارات للتصرف والمناورة.

وهنا يتدخل القائد الفذ شامل باساييف للمرة الثانية منقذاً استقلال الجمهورية الوليدة الذي كاد أن يُجهض في مهده....

« يقولون إننا جبناء، ولكن دعهم وشأنهم. لن نجلس هنا في الشيشان فقط ليذبحونا. حذرت أننا سنقاتل في روسيا، وسيكون هناك الكثير من الأهداف الأخرى. لدينا مواد مشعة وأسلحة بيولوجية تركتها لنا روسيا. نستطيع وضع أسلحة بيولوجية في يكاتيرنبرغ، وجعلهم مرضى جميعاً. لن يحتاج الأمر لأكثر من شخص واحد لوضع اليورانيوم في موسكو. هكذا يموت أحد رجالنا، وتموت المدينة كلها معه...إذا بصق أحد في وجهك لمدة نصف عام، ألا ترد له ذلك ولو مرة واحدة؟ هذا ما فعلنا وسنكرره ثانية.

شامل باساييف من مخبأه الجبلي بعد الغارة على بودينوفيسك.

هاجم الشيشانيون بودينوفيسك بطريقة النابغ (قاطع الطريق) القديم –وهو هجوم مفاجئ عبر الحدود يهدف إلى أسر الرهائن والتسبب بدمار هائل في أسرع وقت ممكن– وذلك باستخدام رشاشات ومضادات دروع القرن العشرين التي تتسبب برعب كبير.

كانت قسوة مقاتلي البويفكس، الذين يبلغ تعدادهم ١٠٠–١٥٠ مقاتلاً، بإمرة شامل كبيرة. اختبأ هؤلاء في شاحنات مغلقة، وتسللوا على طول الطريق الذي يخترق الجبال المحاصرة، وعبر

السهول وصولاً إلى مدينة بودينوفيسك في مقاطعة ستافروبول، وهي مكان هادئ لا يوجد فيه سوى معمل للبلاستيك وقاعدة جوية تستخدمها الطائرات لقصف الشيشان.

يدّعي باساييف بأنه اخترق نقاط التفتيش الروسية، الواحدة بعد الأخرى، بدفع آلاف الدولارات كرشاوي. قد يكون هذا صحيحاً. وفي غالب الأمر، استطاع الشيشانيون التسلل باستعمال الرشاوي وبعض الحيل البسيطة. ليست المنطقة الواقعة بين الشيشان وبودينوفيسك مزدحمة بالسكان، وبتحليل متأنٍ يبدو أن الشيشانيين قد التفوا في البداية شرقاً عبر داغستان، ثم نحو الشمال لتطويق القوات ومخافر الشرطة بسهولة. وبدا لي أحد سائقي الشاحنات التي أقلّت المقاتلين، والذي التقيت به فيما بعد، شيشانياً أشقر الشعر وهو يبدو للوهلة الأولى روسياً.

بقي ذلك الإنجاز مدهشاً، في وقت كانت فيه الشيشان قد خضعت في معظمها للروس.

خارج بودينوفيسك، دخلت المجموعة أخيراً في مواجهة مع الشرطة التي شكّت بالأمر. بقي المكان الذي كان يقصده الشيشانيون غامضاً، وقال البعض إنه معمل البلاستيك. ووفقاً لباساييف، كان ينوي الذهاب إلى أبعد من ذلك، ولكنه قرر البدء بهجوم مباشر على بودينوفيسك نفسها بعدما افتضح سر تحركات قواته.

قد يكون الشيشانيون خططوا لاستهداف مركز بودينوفيسك، وحبكوا تلك القصة لاحقاً للتغطية على استراتيجيتهم. سارت الشاحنات نحو وسط المدينة، وانتشر منها مقاتلو بويفكس في كل مكان لإرهاب السكان. خلال بضع ساعات، اجتاحوا قسم الشرطة والمباني الحكومية، وقتلوا العديد من المدنيين في الشوارع واحتجزوا مئات الأشخاص، وأجبروهم أحياناً على الخروج من منازلهم، ثم قادوهم إلى المستشفى. كان من بين أسرى تلك المدينة طاقم ومرضى المستشفى. استطاع الشيشانيون الحصول على ١٥٠٠ أسير، فيما قال البعض إنهم ٥٠٠٠ أسير. كانت تلك واحدة من أكبر عمليات احتجاز الرهائن بالتاريخ.

قبل أن تتمكن قوات الأمن الروسية من الرد بقوة، زرع شامل باساييف الألغام على مداخل المستشفى، ووضع مقاتليه المزودين بالرشاشات والأسلحة المضادة للدروع في مواقع دفاعية، وأعدم العديد من الطيارين الموجودين بين الرهائن، وأضافهم إلى حمولة سيارة من الطيارين

الذيـن مزقهـم إرباً خـلال هجومه عـلى البلدة. كان الاعتـداء مثيراً للاشـمئزاز. ومهما تكـن الأعذار، فقـد اختبأ مقاتلو باسـاييف خلـف ظهور النسـاء والمرضى والحوامـل والأطباء والأطفـال. ونجح في تحقيـق المطلـب الوحيـد الـذي وضعه للسـلطات المغلوبـة على أمرهـا وهو: بـدء محادثات السـلام في الشيشان.

كان الرئيـس يلتسـين خـارج البـلاد في هاليفاكس منشـغلاً مـع قادة الدول السـبع الكـبرى عندما كانـت بودينوفيسـك تحـترق. وتكلـم باحتقـار عن قطاع طـرق يضعون عصبة سـوداء على رؤوسـهم وتعهـد بمواجهـة الموقـف دون رحمـة. وأشـار، إلى جانب بافـل غراتشـيف، وبطريقتهما المعهـودة بأن الهجـوم على المستشـفى لتحريـر الرهائن سـيكون أفضـل رد على تلـك العملية.

كان واضحـاً بـأن الهجوم سـيكون بمثابة الكارثة: لم تكن القوات الروسـية، التـي أظهرت ضعفها خـلال الحـرب عـلى الشيشـان، مـزودة بتجهيزات جيـدة لتشـن هجوماً عـلى المبنـى المـليء بالرهائن، والـذي يدافـع عنـه ١٥٠ مقاتـلاً انتحارياً مدججين بالسـلاح. لكن الهجوم اسـتمر بالتقـدم. أصابت الدهشـة ملايين مشـاهدي التلفاز،الذين لم يسـبق لهم أن رأوا أو اهتموا كثيراً بحمام الدم في الشيشـان، عندمـا اجتاحـت قـوات كومانـدوس ألفـا والمدعومـة بقذائف الدبابـات ونـيران المدفعية المستشـفى وهـي تطلـق النار عـبر نوافذه. في غضـون دقائق اشـتعلت النيران بالمبنـى، وتصاعد دخـان كثيف من السـطح. وعرف أي شـخص شـاهد مـا حدث بأن الهـدف الرئيسي كان قتـل الشيشـانيين وليس إنقاذ الرهائـن. توقـف الهجـوم عندمـا أجـبر الشيشـانيون الرهائـن عـلى الوقـوف أمـام النوافـذ والتلويح بالرايـات البيضـاء والـصراخ. بعـد وقـت قصـير مـن ذلك، تمكـن الشيشـانيون مـن صد هجـوم ثانٍ للكوماندوس.

كانـت العمليـة برمتها نسـخة مصغرة للحرب في الشيشـان خلال الشـهور السـتة الأخـيرة: يحتل البويفكـس مواقـع مليئـة بالمدنيين، ولا يحـاول الجيش الروسي تجنـب إصابتهم. رغم مسـتوى العنف الهائـل، إلا أن الجيش يفشـل في القضـاء على عدوه.

مـا جعـل الأحـداث في بودينوفيسـك مختلفـة جـداً عـن غيرهـا أنها تقـع في جنـوب روسـيا، وفي مدينـة روسـية وأمـام شاشـات التلفـزة الروسـية. بالنسـبة للـروس، كان الهجـوم عـلى مستشـفى

بودينوفيسك مخزياً لهم، ولكنه فتح عيونهم على أمور أخرى، منها استعراض آلام الحرب، وعدم كفاءة حكومتهم، وإصرار هؤلاء المقاتلين القادمين من الجبال. بعد فشل الهجوم الثاني، قام رئيس الوزراء الروسي فيكتور تشيرنوميردن، وبغياب يلتسن، بما لم يخطر على بال أحد: التفاوض مع المقاتلين شخصياً.

كانت المفاجأة كبيرة لعامة الشعب الروسي بأن يرى تشيرنوميردن، الذي كانت تصوره عدسات التلفزة الروسية، يرفع سماعة الهاتف ويتصل بباساييف، بقدر ما كانت عملية أسر الرهائن مفاجأة بحد ذاتها. كان قائدهم يفاوض لإنقاذ الأرواح، وكان ذلك يعني التخلي عن أيديولوجية الدولة التي تتبنى إبادة قطاع الطرق الشيشانيين بأي ثمن. ليس ذلك وحسب، فقد تحدث أحدهم عن المسؤولية العامة لتلك الأزمة، وهو شيء تفادى الحديث عنه كل الجنرالات والسياسيين خلال الحرب. صرح تشيرنوميردن فيما بعد أنها كانت: المرة الأولى في تاريخ روسيا التي تتقدم فيها حياة الناس على مصالح الدولة.

كان مطلب باسابيف بإجراء محادثات السلام صارماً، ورفض عروضاً بالمال وطائرة تنقله بأمان إلى أي مكان في العالم. في اليوم السادس بعد بداية الأزمة، رضخ الروس للأمر الواقع: سيكون هناك وقف شامل لإطلاق النار في الشيشان، وسيتمكن رجال باسابيف من الفرار. أطلق باسابيف سراح جميع الرهائن عدا ١٥٠ منهم تطوعوا كدروع بشرية لمقاتليه، وعاد مع رجاله إلى الشيشان في قافلة من الحافلات وشاحنة مبردة تقل جثث ١٦ مقاتلاً سقطوا في المعركة. كان الجيش الروسي الغاضب يتعقب القافلة في كل كيلومتر من الرحلة، وتم إطلاق سراح آخر أسير عند الزاوية الجنوبية الشرقية للشيشان، وتلاشى المحاربون بين القرويين الذين استقبلوهم استقبال الأبطال، ووفاءً لوعدهم، وقع الروس اتفاق وقف إطلاق النار في ٢١ حزيران وأوقفوا الحرب. تنفس المقاتلون والقادة الانفصاليون في الجبال المغطاة بالغابات الصعداء، وبدأت التحضيرات في أطلال مدينة جروزني للبدء في محادثات السلام. لقد أنقذ باسابيف الشيشان من الهزيمة."

ا.هـــ من كتاب «جبال الله... الصراع على الشيشان» لسيباستيان سميث

وإني قد آثرت إيراد الواقعة –على طولها– بكامل تفاصيلها الدقيقة لأهميتها البالغة، فالقائد المجاهد الذي يرفض الخضوع لأطر الصراع التي يفرضها عليه عدوه، ويكون مساره العملي الأساسي دائراً حول التخطيط والعمل خارج الصندوق الذي أراد خصمه أن يحتوي جهاده داخله فلا يتمدد إلى مناطقٍ تؤلمه في مقاتله؛ هو القائد الذي يغير مسار التاريخ...

فبفضل التخطيط المحكم في اختيار الأهداف والوسائل، والتعامل الدقيق محسوب العواقب سريع البديهة مع المتغيرات الطارئة، استطاع شامل باساييف تحويل مسار الصراع....

فمن حالة الضعف والانهيار المحتمل إلى هدنةٍ مؤقتةٍ مفروضةٍ بقوة السلاح الضاغطة على وتر اضطراب وترهل النظام السياسي في موسكو.

نعم علم المجاهدون أن محادثات السلام المفترضة مع الصليبيين ما هي إلا فرصة لالتقاط الأنفاس، وترتيب الأوضاع لإعادة الاشتباك ثانيةً في ظروفٍ أفضل تُمكّن من الصمود لفترةٍ أطول أمام هذه القوة العسكرية الجبارة التي لن تتوانى عن نكث العهود متى ما تهيأت لها الفرصة.

إلا أن المجاهدين أبوا خلال هذه الهدنة المؤقتة إلا أن يسطروا مزيداً من الدروس والعبر..

فعندما ذهب الرئيس الشهيد سليم خان يندربييف مبعوثاً للمجاهدين الشيشان إلى موسكو للتفاوض مع يلتسين على وقف إطلاق النار، أصر يلتسين بداية الأمر أن يجلس على رأس الطاولة ليجلس الوفد الشيشاني على أحد جانبي الطاولة، ورئيس الوزراء الروسي تشيرنوميردن مع زافغاييف رأس الحكومة الشيشانية العميلة على الجانب الآخر، كي يظهر وكأن الرئيس الروسي يلعب دور الوسيط في مشكلةٍ روسيةٍ داخلية وهو ما يؤثر رمزياً على مطلب الاستقلال الشيشاني.

فما كان من يندربييف –رحمه الله– إلا الإصرار على الجلوس في مقابلة يلتسين تماماً، في محادثات ندية بحتة لا تتضمن أي إشارة ولو رمزية للخضوع لسلطة موسكو؛ وهو ما تم في النهاية رغماً عن أنف القيادة الروسية..

فإذا قارنت هؤلاء الجبال بمن لا يملكون أمرهم من الأساس ليتفاوضوا بشأنه مع عدوهم،

بـل ينتظـرون مخرجات جـولات سـيدهم التفاوضيـة ليلتزموا بهـا التزاماً حرفيـاً، ثم يجـبرون من أبى الاسـتعباد عـلى الخضـوع لها؛ علمـت أن قيـادة الأمـة في دروب البطولـة والصمود لا تتأتـى لأصاغر النفس، خائـري العزيمة، مسـلوبي الإرادة..

وبعـد شـهورٍ مـن محادثات السـلام الشـكلية بين الطرفـين، وفي الربـع الأخير من العـام ١٩٩٥م، عـاودت القـوات الروسـية الكـرّة بشـكلٍ أعنف عـلى المجاهديـن الشيشـان، واحتاج المجاهـدون إلى ضربـةٍ نوعيـةٍ جديـدة توازن كفـة المعركة غـير المتكافئة تمامـاً من حيث العـدد والعدة، وهنـا جاء دور القائـد سـلمان رادوييف ليقـول كلمته..

لقـد كانـت عمليـة بودينوفيسـك ملهمـةً لقـادة الجهـاد الشيشـاني في كيفية تغيـير معادلـة الصراع مـن خـلال الانقضـاض على نقـاط ضعف عـدوك حينـما لا يتوقـع أي خلل يصيبـه من هـذه النقاط؛ وهكـذا قـاد سـلمان رادوييف مجموعـة مقاتلة متسـللة عـبر الحـدود الشيشـانية الداغسـتانية للهجوم عـلى قاعـدة للمروحيـات الروسـية في كزلير بشـمال داغسـتان، إلا أن القاعدة لم يكن بها سـوى بعض المروحيـات التـي قامـوا بتدميرهـا، وبعـد محاصرتهم من قبـل القـوات الروسـية، انحازوا إلى مشـفى كزلـير واحتجـزوا حـوالي ٢٠٠٠ شـخص كرهائـن لمنـع القـوات الروسـية مـن اقتحامهـا، وبعـد مفاوضـات عسـيرة تـم الاتفاق على تكرار سـيناريو بودينوفيسـك وخروج المقاتلـين في حافلات نحو الحـدود الشيشـانية مصحوبـين بعـددٍ مـن الرهائن لتأمـين حياتهم.

إلا أن الكرملـين لم يـرد تلقـي صفعـة بودينوفيسـك جديـدة، لذلـك عندما اقتربـت الحافلات من الحـدود الشيشـانية حلّقـت فوقهـا المروحيات الروسـية واسـتهدفت الطريـق أمامها لمنعهـا من إكمال طريقهـا نحو الشيشـان، مـا اضطـر المجاهدين إلى الاتجـاه نحو قريـة بيرفوميسـكوي للتحصن بمركز الشرطـة فيهـا، واتخـاذ العاملين فيـه كرهائن..

وبعـد مفاوضـات اسـتمرت عـدة أيـام، قـرر الـروس اقتحـام القرية التـي فر منهـا أهلهـا بالقوة العسـكرية الغاشـمة وإبـادة جميـع المهاجمـين ومـن بقـي معهـم مـن الرهائن، حيـث حشـدوا ٢٠٠٠ جنـدي لإطبـاق الحصـار عـلى القرية ثم بـدأوا الهجـوم الذي اسـتمر لعـدة أيـام، إلا أن النتيجة كانت هزيمـة مذلـة جديدة..

لقد قام المئات من المجاهدين الشيشان بعملية التفاف عبر الحدود ساعدت على تنفيذ عملية انحياز عجيبة خرجت على إثرها قوات سلمان رادوييف مع الرهائن بسلام إلى قواعد المجاهدين الشيشان في المناطق الوعرة داخل الجمهورية الوليدة..

وعلى الرغم من عدم إسفار العملية عن نتائج سياسيةٍ واضحة كما حدث في العملية الأولى، إلا أنها ضربت معنويات الجبهة الروسية في مقتل، وأظهرت العجز العسكري والاستخباراتي للإمبراطورية الروسية المتداعية، في وقتٍ ظن الكثيرون قرب انتهاء المعركة لمصلحتها..

وبعد عدة أشهر، وفي أثناء محاولة للتفاوض، أعطى الروس للمجاهدين درساً جديداً عن عقليتهم «الدبيّة»..

لقد تم اغتيال جوهر دوداييف أثناء محاولة للاتصال بعضو في البرلمان الروسي للعب دور الوسيط مع الكرملين في سبيل الوصول إلى حل، حيث استغلت المخابرات الروسية الاتصال المعلوم مسبقاً لتحديد موقع الرئيس الشيشاني – ربما بمساعدة أمريكية – ليتم الاستهداف الذي أسفر عن مقتله الفوري رحمه الله...

إن الروس في هذه الحادثة يكشفون مبدأهم في الحرب، «القوة العسكرية العمياء غير المهتمة كثيراً بالعواقب السياسية تجلب النصر»، وهو المبدأ الأساسي الذي طبع غالب التاريخ العسكري الروسي –وأُجريت عليه بعض التعديلات في عهد بوتين–، والذي يجب أن يضعه في الحسبان كل من أراد الدخول في مواجهة معهم حتى يستطيع بناء استراتيجياته على بصيرة...

خلف جوهر دوداييف نائبه سليم خان يندربييف، والذي أعلن أن الشريعة الإسلامية هي المرجع الوحيد لقوانين الجمهورية الوليدة في مؤشر على هوية المعركة الإسلامية – الصليبية؛ وبعد شهورٍ جديدةٍ من القتال وصل الوضع العسكري والإنساني على حد سواء إلى منزلقٍ خطير، فقد بلغ تعداد اللاجئين والنازحين من عوام المسلمين مئات الآلاف في بلد يتراوح تعدادها السكاني الكلي ما يقارب المليون ونصف المليون نسمة، مع انعدام شبه تام للخدمات الصحية والإغاثية والاجتماعية؛ أما على الصعيد العسكري فقد بلغ الاستنزاف من قوات المجاهدين مبلغه بعدما قاربت المعارك على سنتين مع الجيش المصنف في المرتبة الثانية عالمياً، ولم يكن أمامهم إلا القيام

بخطوةٍ «صفريّة» تلعب على وتر التناقض داخل إدارة موسكو والذي اتسع بين أطرافها في أعقاب الانتخابات الرئاسية الروسية في شهر يونيو ١٩٩٦م، وتولي الجنرال ألسكندر ليبيد رئاسة مجلس الأمن القومي وحيازته لصلاحيات واسعة في الملف الشيشاني..

وهذه الخطوة الصفرية كانت هجوم جروزني؛ إذ اخترق ما يقارب ثلاثة آلاف مقاتل شيشاني الطوق الأمني للعاصمة وتسللوا إلى قلبها وتوزعوا على المناطق الحيوية فيها ليطلقوا معركة تحرير العاصمة من داخلها لا من خارجها كما انتظر الروس وعملاؤهم؛ وهنا وقعت الواقعة..

لقد كان الروس يعتمدون في سحق أي مقاومةٍ شيشانية في المناطق المدنية والسهلية على القوة الباطشة للطيران التي تجعل من الصمود لفتراتٍ طويلة أمر أقرب إلى الاستحالة خصوصاً مع صغر مساحة الجمهورية التي تبلغ ١٥٠٠٠ كيلومتر مربع، وبالتالي فإن التسلل وبدء المعركة من داخل حصون العدو في جروزني حيث لا يفصل بين الجبهتين إلا بضعة أمتار، ونقل القتال إلى نمط حرب الشوارع، والتحييد شبه الكامل لسلاحي المدفعية والطيران اللذين يعني استخدامهما سحق أجزاء من قواتهما المقاتلة على الأرض؛ قد أوقع الروس في مأزق..

إذ سرعان ما تتابعت الأخبار السيئة إلى الكرملين بسيطرة «المتمردين» الشيشان على مساحاتٍ واسعة من العاصمة التي يلقون فيها دعماً واسعاً من السكان دون القدرة على استخدام سياسة «الأرض المحروقة» لتواجد قوات الجيش الروسي بكثافة داخلها؛ وهنا جاء دور التناقض الذي راهن عليه المجاهدون داخل أروقة الحكم...

لقد أراد صقور الجنرالات في الجيش والاستخبارات وضع خطة تقضي على وجود المجاهدين في جروزني بأي ثمنٍ كان ولو أُبيد السواد الأعظم من القوات الروسية المتمركزة فيها، إلا أن ألكسندر ليبيد أدرك أن هذا السيناريو الكارثي غير متناسب تماماً مع حالة الغضب الشعبي العارم التي اجتاحت الشارع الروسي للموقف المنهار للجيش في هذه الحرب «التي لا يُرى لها نهاية»، بالإضافة إلى إدراكه التام أن الجيش الروسي بتنظيمه الحالي المتداعي منذ سقوط الاتحاد السوفيتي وبدون تخطيط سياسي استراتيجي داعم من القيادة السياسية في موسكو غير قادرٍ على إنهاء الحرب وإن تم تصفية بؤرة «التمرد» في جروزني، هذا بجانب أن ألكسندر ليبيد كان قد

احتـل للتـو المرتبـة الثالثـة في الانتخابات الرئاسـية ويرغـب في الإقدام عـلى خطوة جريئة تحسـم هذه الحـرب المكروهـة شـعبياً، مـا يرفع أسـهمه في أي انتخابات رئاسـية مقبلـة لخلافة يلتسـين المريض...

فدخـل ليبيـد في مفاوضـاتٍ سريـة مـع القيـادة الشيشـانية بينـما كانـت الحـرب دائـرة في جروزني عـلى أشـدها، ليتوصل خـلال فـترة زمنية قصـيرة لاتفاقيـة «حقيقية» لوقـف إطلاق النار وانسـحاب القوات الروسـية إلى قواعدها الرئيسـية في الشيشـان تمهيداً للانسـحاب الكامل، وبعد توقيع الاتفاقية نجـح في إحبـاط مخطـط لقـادة الجيـش بشـن هجـوم جديـد كاسـح عـلى جـروزني يذهـب بالاتفاقية أدراج الرياح.

وفي شـهر نوفمـبر عـام ١٩٩٦م أصدر بوريس يلتسـين قراره بالسـحب الكامل للقوات الروسـية مـن الشيشـان اسـتعداداً للجولـة القادمة التي بـدأ التجهيز لها منـذ اللحظة الأولى من الانسـحاب...

وعـلى الرغـم مـن محدوديـة الـدور العسـكري للمجاهديـن المهاجريـن في الحـرب الأولى مقارنـةً بالحـرب الثانيـة، إلا أن تدفقهـم عـلى الشيشـان واشـتراكهم في الـصراع قـد عـولم القضية الشيشـانية إسـلامياً، وصبغهـا بصبغتها الحقيقية التـي طالما حاول الـروس إخفاءها بكثير من مسـاحيق التجميل الكاذبـة بالادعـاء المسـتمر أن هذا «النزاع» ليس سـوى «مشـكلة داخلية روسـية» حيث وجـدوا دعماً غربيـاً هائلاً.

وقـد كان الرئيـس جوهـر دوداييـف –رحمـه الله– عـلى درايـة بأهميـة ومحوريـة الجانـب «الهوياتي» للـصراع حـين قـال للقائد خطّـاب –رحمـه الله– :

« إن هـذه القضيـة قضيةٌ إسـلامية، فلماذا لا نشـاهد الكثير مـن المقاتلين مثلك يأتـون إلينا لنصرتنا في وجه الروس»

وغيـاب هـذا الإدراك عـن البعـض يدفعهم لتنفيـذ مراد عدوهم بحـصر المعركة داخـل قطرٍ ضيق يسـهل من خلاله إخضاعهـم لإرادته...

فاعتبروا يا أولي الأبصار..



المحور الثالث

مرحلة ما بين الحربين: الإعداد والتجهيز

بـدأ المجاهـدون في الشيشـان وبعد الانتصـار المرحـلي في الجولـة الأولى بالبدء في الإعـداد المكثف للمعركـة، مـع تقاطـر الكفـاءات والكـوادر مـن المهاجريـن إلى أرض القوقـاز لدعـم إخوانهـم بـما اكتسـبوه فيـما سـبق مـن سـاحات القتال.

وقـد عمـل المجاهـدون -المهاجرون والأنصـار- على حدٍ سـواء على ثلاثة مسـارات متوازية لتهيئـة الجبهـة الداخليـة للصدام القادم:-

أـ المسار الدعوي:

فنظـراً للعقـود المتطاولـة التـي خضـع فيهـا أهـل الشيشـان للحكـم القيـصري الصليبـي، ثـم الشـيوعي الإلحـادي، فقـد كانـت معرفة النـاس بأمـر دينهم شـديدة السـطحية، بالإضافـة إلى هيمنة الطـرق الصوفيـة خاصـة النقشـبندية والقادرية عـلى عامة أهل تلـك البلاد مع ما يصاحب الانتسـاب لهـذه الطـرق مـن بدعٍ عقدية وعملية، ولما كانـت العقيـدة الصحيحة هي الأسـاس الـذي يبني عليه المسـلم الفهـم الصحيـح للواقـع وتوصيـف مكوناته وأطرافـه التوصيـف الصحيح الـذي يتوافق مع شريعـة الله، وبالتـالي تجنيـب الأقـدام الانـزلاق والزلـل بعـد الثبـوت، مـا يصلّـب الجبهـة الداخليـة للمسـلمين وقـت الصـدام الشـديد الـذي تزيغ معـه القلوب الأبصـار، ويجعلهـا عصيةً عـلى اختراق العـدو المتربـص بهـا كل حـين؛ كان لزامـاً عـلى أهل العلـم مـن المهاجريـن القيـام بأمانة تبليـغ العلم دون مصادمـة عـادات النـاس وتقاليدهـم التي تجـذرت في هذه البقعة منـذ عقود طويلة، بـل بالتدرج والتأليـف وإصـلاح الأولى فالأولى.

وقـد كان عـلى رأس أولئـك الشـيخ المجاهـد أبـو عمـر السـيف -رحمـه الله- الـذي أنشـأ معهـداً للدراسـات الشرعيـة لتخريـج الكـوادر الشيشـانية اللازمـة لأداء هذه الأمانـة، والعجيب أنه أسـمى

هـذا المعهـد بـ«معهـد الإمام الشـافعي» عـلى الرغم مـن كونه حنبلياً من جزيـرة العـرب، إلا أنه أراد تأليـف قلـوب أهـل البـلاد الذين يتبعـون المذهب الشـافعي منذ قـرون ويعتبرونـه جزءاً مـن هويتهم القوميـة والدينيـة التـي لا يمكـن التنـازل عنها بحـال، تمامـاً كحال المذهـب الحنفي في بـلاد الأفغان؛ وهـذا مـن عظيـم الفقـه الـذي فوّت عـلى كثيرٍ مـن أصحـاب القلـوب المريضة فرصـةً ثمينـة للإيقاع بـين المهاجريـن والأنصار.

ب- المسار العسكري:

بعـد التجربـة العاصفـة في قتـال الـروس خـلال الحـرب الأولى، أصبـح واجبـاً عـلى المجاهديـن الجلـوس لأخـذ العظة والعبرة من هـذه الملحمة الكبيرة، ومراجعـة تكتيكاتهم العسـكرية والتنظيمية، ورفـع مسـتوى الكفـاءة القتاليـة، وتشـكيل المجموعـات المترابطـة القـادرة عـلى الصمـود في الصراع المنتظـر لسـنين؛ وقـد لعـب القادة العسـكريون مـن المهاجريـن الـدور البـارز في ذلك الميـدان في نقل خبراتهـم لإخوانهم الشيشـانيين، ما سـاعد على توسـيع القاعـدة العسـكرية المدربة تدريبـاً منضبطاً في صفـوف الشـعب الشيشـاني، وبالتبعية زيـادة القابلية لإدامـة حرب العصابـات القادمـة وإمدادها بما تحتاجـه مـن الكوادر.

ج- المسار الإغاثي:

فقـد عمـل المهاجـرون عمـلاً مضنيـاً لاسـتجلاب الدعـم المـالي مـن عمـوم المسـلمين للقضيـة الشيشـانية التـي كانـت غائبـة عـن قطاعـاتٍ كبيرةٍ منهـم، لرفع بعـض الـضرر الهائل الـذي وقع على أهـل تلـك البلاد التي تدمرت حواضرها الرئيسـية بشـكلٍ شـبه كلي؛ وقد لعبت المشروعـات الإغاثية التـي دعمهـا المهاجـرون وحرصـوا على توفـير التمويـل الـلازم لهـا دوراً بـارزاً في الالتحام الشـعبي معهـم واعتبارهـم جـزءاً لا يتجـزأ مـن النسـيج المجتمعي حيـث كثرت حـالات الـزواج والمصاهرة فاختلطـت الدمـاء وجُمـع بين الأخـوة الإيمانيـة وأخوة النسـب.

وبعـد انتهـاء الحـرب الأولى بانتصار المجاهدين الشيشـان، ومقتـل جوهر دودايـيف الذي اجتمع تحـت مظلتـه التياريـن المتعارضـين –القومـي والإسـلامي- دون ظهـور خلافاتهـما إلى السـطح؛ بـرز انقسـام الطبقـة السياسـية الشيشـانية بـين الفريقـين خصوصـاً بعد عقـد انتخابـات الرئاسـة وانتصار

أصلان مسخادوف رمز التيار القومي « المعتدل» المقبول غربياً على رمزي التيار الإسلامي «الراديكالي» شامل باسايف وسليم خان يندربييف الرئيس الثاني للجمهورية الوليدة.

لقد كان ظاهراً للعيان أن التيار المقبول غربياً بزعامة مسخادوف مرشحٌ بجدارة لكي يخرج من بين صفوفه خائنٌ يضرب الحركة الجهادية في مقتل وقت الصدام مع الروس، ولعل مفتي الشيشان أحمد قاديروف الرمز الديني للتيار القومي « المعتدل» لم يخلف الظنون بعد سنواتٍ قلائل؛ إلا أنه ولثقل التيار الإسلامي عسكرياً ومجتمعياً برموزه التي أصبحت أبطالاتيار القومي « المعتدل» لم يخلف الظنون بعد سنواتٍ قلائل؛ إلّ للحرب الأولى مثل شامل باسايف، وسليم خان يندربييف، وعربي بارايف، وسلمان رادوييف ابن شقيقة الرئيس الراحل دوداييف، منع أصلان مسخادوف من الصدام معه، بل لم يستطع نقض القرار الذي أصدره يندربييف قبل تركه الرئاسة بتحكيم الشريعة الإسلامية وتفعيل المحاكم الشرعية في أرجاء البلاد.

إلا أن الهفوة التي وقع بها الرئيس الشهيد سليم خان يندربييف بنقل جزءٍ كبير من القانون الجنائي السوداني المعمول به في عهد البشير والقائم على المذهب المالكي وجعله المرجعية القانونية الأساسية في البلاد، سمحت لتيار الخيانة بزعامة قاديروف باستقطاب الدعم الشعبي كون الأحكام المطبقة بشكلٍ رسمي تخالف مذهب الشعب السائد وهو المذهب الشافعي والذي يشكل جزءاً من هوية الشعب التي تعززت وترسخت بفعل الصدامات التاريخية مع الروس والذين حاولوا جاهدين طمس مكوناتها كما سبق وأن ذكرنا، بالإضافة إلى الخلل المعروف في فكر حكام السودان آنذاك ما ينعكس على نصوص القانون الجنائي وبالتالي تؤدي إلى خللٍ في تطبيق الشريعة ما يستجلب سخط العوام.

لقد اتسمت فترة ما بين الحربين بكون الصراع قد تحول مؤقتاً من الجانب العسكري إلى الجانب الأمني، فقد حرصت المخابرات الروسية على عدم ترك الفرصة للمجاهدين الشيشان لالتقاط الأنفاس وترتيب البيت الداخلي، فعكفت على تدبير عمليات التخريب المنظمة، ومحاولة اغتيال رؤوس الدولة الشيشانية، حيث تمثل ذلك في محاولات الاغتيال المتعددة التي استهدفت خطاب وباسايف ومسخادوف، لدرجة اكتشاف المجاهدين لعشرات الجواسيس الروس في معسكرٍ واحد في إشارة للزخم الضخم للعمل الأمني الروسي.

لذلـك كان عـلى المجاهديـن توسـيع رقعـة المعركـة والـرد على ضربـات العـدو في داخـل مناطقه بمنهجيـة تحـرص عـلى عـدم الإسراع في إشـعال الجولـة الثانيـة مـن الـصراع قبل إتمـام التجهـز، ففي إبريـل ومايـو ١٩٩٧م اسـتهدف المجاهـدون محطتين للسـكك الحديدية في كراسـنودار وسـتافروبول أقـصى الجنـوب الـروسي بقنبلتين ما أدى لمقتل خمسـة أشـخاص وجـرح آخرين، ومـع تصاعد الحرب الروسـية عـلى الكيـان الناشـئ أراد المجاهـدون الـرد بقسـوة في الداخل الـروسي لـردع الكرملين عن تصرفاتـه الرعنـاء، فقـاد خطـاب سريـة من مائـة مجاهد مـن المهاجريـن والأنصـار واخترقـوا الحدود بعمـق ١٠٠ كيلـو مـتر نحـو قيـادة اللـواء ١٣٦ الآلي حيـث دمـروا العديـد مـن الآليـات وأوقعـوا مقتلـة بالجنـود الـروس؛ وبخلاف مناوشـات الحـدود والقصـف الصاروخـي والمدفعي المتبـادل بين الطرفـين؛ كان الحـدث الأمنـي الأبـرز قـد وقع في مـارس عـام ١٩٩٩م عندمـا أُسر الجنـرال غينادي شـبيغون المبعـوث الخـاص للكرملـين إلى الشيشـان في مطـار جروزني.

وعـلى الصعيـد الروسي، ففـي العـام ١٩٩٨م، كانت الدولة الروسـية تعيش أسـوأ مراحل ترهلها خاصـة مـن الناحيـة الاقتصاديـة؛ فلقـد كانت الدولـة مطالبة بسـداد حـوالي ١٨ مليـار دولار كفوائد للقـروض الحكوميـة التـي اقترضتهـا الدولة بعد سـقوط الاتحـاد السـوفييتي، كما كانت ملزمـة بتوفير رواتـب موظفـي القطـاع العـام ورواتـب التقاعـد للعاملين الذيـن أنهـوا خدمتهم، ولم تكـن حصيلة الضرائـب حينئـذٍ تتجـاوز ٢٢,٥ مليـار دولار؛ مـع التدفـق المتزايـد للأمـوال نحـو الخـارج من قبل الطبقـة الأوليجاركيـة الحاكمة التي سـطت عـلى الاقتصاد الـروسي طـوال حقبة التسـعينيات بالجمع بين السـلطة والمال.

مـا اضطـر رئيـس الحكومـة كيرينكـو إلى إعـلان إفـلاس الإمبراطوريـة المترنحـة، وخفـض قيمة العملـة، والإقـرار بعـدم قـدرة الدولـة الروسـية عـلى الوفـاء بالتزاماتهـا المالية.

لقـد كانـت الحالـة السياسـية العامة تبحث بشـكلٍ ملـح عن عـدوٍ خارجي تصـدّر إليه مشـاكلها المتراكمـة التي كانـت تهدد بقـاء الطبقـة الحاكمة...

وفي ظـل هـذا الوضع الـذي ينذر بقرب وقـوع الجولة الثانية مـن الحرب، كانـت تداعيات الهجوم الـذي شـنه خطاب في داغسـتان نهاية عـام ١٩٩٧م مازالـت حاضرةً في المشـهد السـياسي في القوقاز،

فبعد تنفيذ الإغارة على القاعدة الروسية في الداخل الداغستاني وتكبيد الجيش الروسي الخسائر الضخمة في الرجال والعتاد، عمدت السلطات الداغستانية العميلة إلى استئصال شأفة الحركة الإسلامية في الداخل الداغستاني بكل قسوة بتحريضٍ من الروس، ما دفع المجاهدين في داغستان إلى التصدي لقوات الشرطة والسيطرة على بعض المناطق الحدودية مع الشيشان، ما استدعى تدخل الروس لإعادة السيطرة على تلك المناطق، وهنا أيقن المجاهدون أن خطوة توسيع المعركة نحو داغستان كخطوة أولية لتعميم الصراع في كامل الشمال القوقازي قد حانت؛ فعبر شامل باساييف وخطاب على رأس عصبة من المجاهدين لرد عادية الروس عن إخوانهم الداغستانيين، وبالفعل جرت مواجهات عنيفة امتدت لأسبوعين انسحب بعدها المجاهدون وسيطر الروس على الوضع بعد أن تكبدوا الخسائر الهائلة في الأرواح والمعدات.

لقد كانت خطة غزو الشيشان قد أُعدت مسبقاً في أروقة الكرملين في شهر مارس عام ١٩٩٩م باعتراف سيرجي ستيباشين وزير الداخلية ورئيس الوزراء الروسي الأسبق؛ إلا أن التغيرات السياسية في موسكو التي أعقبت أحداث داغستان كان لها أثرها الكبير على الحرب المنتظرة.

ففي ظل الفشل العسكري، وتصارع النخبة الحاكمة على خلافة يلتسين، كان الرئيس المريض يبحث عن خليفةٍ قوي يحكم قبضته على الحكم في الكرملين، ويضمن له ولأفراد حاشيته الإفلات من المساءلة القانونية التي باتت قريبة في ظل الغضب الشعبي المتصاعد وتداعي نظام الحكم يوماً بعد يوم.

لقد وقع اختيار يلتسين على الرجل الذي بات يحظى بثقته، فلاديمير بوتين رئيس جهاز الأمن الفيدرالي ومجلس الأمن القومي، وأسند إليه رئاسة الوزراء ليستهل مهامه بعلاج «الجرح الشيشاني».

إلا أن الزعيم المرتقب للكرملين قد تعلم من إدارة رئيسه المضطربة للحرب الأولى، أن خوض الحرب بدون دعم الجبهة الداخلية سيؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى وضع النظام السياسي في موقفٍ حرج، خاصةً مع عدم رسوخ أقدامه بشكلٍ شخصي في المنصب الجديد الذي طالما شهد التغييرات شديدة السرعة في السنوات الأخيرة من عهد يلتسين.

لذلـك كان لابـد مـن وضـع خطـة تدفـع نحـو حشـد الجبهـة الداخلية خلـف القيـادة السياسـية لخـوض الجولـة الثانيـة من الحـرب الشيشـانية بكامـل الدعـم والمسـاندة الشـعبية بما يضمـن النجاح الأولي لقـرار الحـرب، ويثبّـت الأقـدام المهتـزة لرئيس الـوزراء الجديد الـذي تتربص به أقطـاب حقبة يلتسين .

ووفقاً لخبرتـه السـابقة كضابط في جهاز الاسـتخبارات السـوفييتي كـي جـي بي، وكرئيس لجهاز الأمـن الفيـدرالي الـروسي، علـم أن الـشيء الوحيـد القـادر على حشـد الدعم الشـعبي خلـف حربٍ سـيئة السـمعة هـو إحضار العـدو إلى داخـل البيت الـروسي؛ لذلـك فقد دبر جهـاز الأمـن الفيدرالي سلسـلة تفجيرات اسـتهدفت الشـقق السـكنية في العاصمة موسـكو وبعض المناطق الروسية الأخرى وأسـفرت عـن ما يقـارب ٣٠٠ قتيـل و٧٠٠ جريح...

وبعـد أن نفي المجاهدون الشيشـان مسـؤوليتهم عن سلسـلة التفجيرات المخططـة بدقة، توجهت أصابـع الاتهـام نحو رئيس الوزراء الشـاب..

حيـث صرح محافـظ كراسنويارسـك ألكسـندر ليبيـد الـذي وقـع وقـف إطـلاق النـار مـع قـادة الجمهوريـة الشيشـانية في نهايـة الحـرب الأولى لصحيفـة لوفيجارو الفرنسـية أن الشيشـان ليس لديهم مـا يكسـبونه مـن هـذه التفجـيرات، في حـين يلتسـين وحاشـيته لديهم مـا يكسـبونه منهـا؛ وأضاف: «لابـد مـن وضع الهـدف، وهو بـث الرعـب الشـامل، وزعزعة الاسـتقرار الذي يسـمح لهـم بالقول وقـت الحاجـة: عليكم ألا تذهبـوا إلى الدوائر الانتخابية؛ وإلا فسـتخاطرون بأنفسـكم أنتم وصناديق الاقتراع»

وقد أتت حادثة مدينة ريازان الروسية لتكشـف عن حقيقة التفجيرات المدبرة سـلفاً...

« التفجـير الـذي لم يحـدث وضـع كل شيء عـن الأحـداث في الصيف موضع تسـاؤل، وفي مسـاء يـوم ٢٢ سـبتمبر/ أيلـول، في الليلـة التـي سـبقت تصريح بوتين الشـهير حـول المرحـاض الخارجي، لاحـظ سـائق حافلة يعيش في ريازان، جنوب شرقي موسـكو، سـيارة لادا بيضـاء متوقفة خارج مبنى شـقته، وقـد وقفـت امـرأة شـابة –يظهـر عليها بوضـوح أنها مـن العرق الـروسي– بقلق عنـد مدخل المبنـى، في شـارع نوفوسـيلوفايا، وكان يجلـس داخـل السـيارة رجـل، وسرعـان مـا ظهـر رجـل آخر

مـن المبنـى، وانطلـق الثلاثـة معاً بعيـداً، ولأن الأوضـاع كانت عـلى حافـة الهاوية بسـبب التفجيرات السـابقة، اسـتدعى سـائق الحافلة الشرطـة بالهاتف.

في البدايـة بـدا أن الشرطـة غـير مهتمـين، ولكـن عندمـا وصل الضبـاط أخـيراً اندلعـت حالة من الذعـر؛ ففـي الطابق السـفلي وجد عريف في الشرطـة، هو أندريه شيمايشـيف، ثلاثة أكياس موسـومة بالسـكّر، تماماً كتلـك التـي كانـت في التخزين المؤقـت في موسـكو، والجهاز الـذي يبدو أنـه المفجر، وحُـدد جهـاز الضبـط على السـاعة الخامسـة والنصـف ٥:٣٠ صباحاً، فأمـرت الشرطة فـوراً بإخلاء المبنـى المكـون مـن اثني عـشر طابقـاً، واسـتدعي خبـير المتفجـرات المحلية، يـوري تكاشـينكو، لنزع فتيـل المؤقـت، ففحـص محتويـات الأكيـاس بمحلـل غـاز، ليكتشـف أنهـا ليسـت سـكراً وإنـما مادة متفجـرة تدعـى الهكسـوجين، كتلـك التـي اسـتخدمت في واحـد على الأقل مـن تفجيرات موسـكو. وفي صبـاح اليـوم التـالي تناقـل الناس أخبـاراً تفيـد أن تفجـيراً كارثياً آخـر أمكن تجنبـه بأعجوبة.

لم يكـن المـزاج في ريـازان احتفاليا، لكن تلقى السـكان والشرطة المحلية الثنـاء، وفي تصريحات بثها التلفـاز قـال بوتـين: «أريد أن أشـكر السـكان ليقظتهم»، وبينـما كان سـكان المدينة فاقديـن أعصابهم يفكـرون مـا الذي يجـري، كان محققو الشرطـة يقتربون أكثر مـن المفجرين المحتملين، ووجدوا سـيارة الـلادا المهجـورة في موقـف للسـيارات، وأوقـف رجلان يشـبهان الرجلـين اللذين أبلـغ عنهما خارج المبنـى السـكني، لكنهـما أبرزا بطاقـات الـ (اف اس بي) وأُطلقا، وفي ذلك المسـاء سـمع عامل المقسـم المحـلي متصـلاً يقـول إنـه لا يمكن أن يخرج مـن المدينة دون تفتيـش، فرد عليهم الصـوت على الطرف الآخـر أن عليهـم أن يتفرقـوا ويخرجـوا بأفضـل مـا يمكـن، فأبلـغ عامـل المقسـم الشرطـة، وتتبعت الشرطـة المكالمـة إلى موسـكو، ومما أثار دهشـتهم أن رقـم الهاتف ينتمي للــــ(اف اس بي).

في ذلـك المسـاء، بـدا المتحـدث باسـم جهـاز الأمـن الفيدرالي يلقـي ظلالاً من الشـك عـلى كل ما يحـدث في ريـازان، مدعيـاً أن اختبـاراً أولياً أظهر عـدم وجود آثار متفجـرات بين المـواد التي صادرها اف اس بي وجلبهـا إلى موسـكو، ولم يكـن هنـاك أي صاعـق تفجير، وإنما أجـزاء منه فقـط. وفي اليوم التـالي تحـدث مديـر جهـاز الأمن الفيـدرالي، نيكـولاي باتروشـيف، للصحفيـين بعد حضـور اجتماع طـارئ للحكومـة لمناقشـة لتفجيرات. باتروشـيف، ضابط سـابق في الــ(كي جـي بي)، وزميل بوتين

مـن بطرسـبورغ، لحـق بصديقـه إلى موسـكو وترفع في الرتـب معه، وتـولى منصب مدير جهـاز الأمن الفيـدرالي عندمـا أصبـح بوتـين رئيسـاً للـوزراء في عـام ١٩٩٩م، وظـل واحـداً مـن ملازميـه الأكثر وثوقـاً. أعلـن أن المسلسـل بكامله في ريـازان كان مجرد مناورة تدريبيـة ترمي لاختبار الاسـتعدادات للتفجـير، بالضبـط كتلـك التـي تضرب المـدن الروسـية، وقـال إن التدريبـات أجريت في عـدة مدن، ومـن الواضـح أنهـا لم تنجـح لعدم وجـود تفجيرات تحاكـي تلك التي وقعـت في ريـازان في أي مكان آخـر، وقـد حيّـا سـكان المدينـة والشرطـة لمـا يتحلون بـه من يقظـة عندمـا اكتشـفوا هـذه المتفجرات المفترضـة، وأضـاف: «في الوقـت ذاتـه، أريد أن أعتـذر لهم».

بيـان باتروشـيف نقلتـه فـوراً الصحـف في موسـكو وخارجهـا، لكنـه فاجـأ النـاس في ريـازان وشوشـهم، فقـد لا يكون السـكان والشرطة على علـم باختبـارات يقظتهم، ولكن قسـم الـ(اف اس بي) المحـلي أيضـاً قـال إنه لا علم لـه بأي تدريبـات؛ ولا حتى المحافـظ أو العمدة أو أي شـخص آخر في المدينـة. تأخـير إبـلاغ السـكان المذعوريـن في المدينـة يومـاً ونصف يوم يبـدو أنه لا يمكن تفسـيره، خاصـة أن وزارة الداخليـة حشـدت ١٢٠٠ ضابـط لتنفيذ حملة اعتقـالات للقبض على المشـتبه فيهم، والبحـث عـن مزيـد مـن القنابـل، وأن الضبـاط الذين شـاركوا في نـزع فتيـل القنبلة يعرفـون ما رأوه بأعينهـم، فتدريبـات الــ(اف اس بي) إمـا أنهـا تختبر الاسـتعدادات لمواجهـة الإرهـاب أو أنها خدعة بحـد ذاتهـا. في ذلـك المسـاء اتصـل أحدهـم بإيخـو موسـوفي، المحطـة الإذاعية التي تشـجع المناقشـة السياسـية المفتوحـة إلى حـد معقـول، وعرف عن نفسـه بأنـه ضابط أمن، عـلى الرغم مـن أنه لم يصرح باسـمه أو يكشـف عـن هويتـه، وأعـرب عـن حيرتـه في تفسـير الــ(اف اس بي)، وقـال إن ذلك غير وارد عـلى الإطـلاق، وقـال: إن النـاس بـدأت تفكـر أن الــ(اف اس بي) متورطـة بطريقـة مـا في كل التفجيرات."

١.هــ من كتاب «القيصر الجديد» لستيفن لي مايرز

إلا أن حادثـة ريـازان تم احتواؤها من الدوائر الرسـمية الروسـية كي لا تـؤدي إلى الإطاحة بكبار المسـؤولين في الدوائـر الأمنيـة والحكوميـة، وتُفقـد سلسـلة الانفجـارات التـي سـبقتها زخمهـا المؤيد للحـرب والـذي ظهـر أثـره على اسـتطلاعات الـرأي التي أشـارت إلى ارتفـاعٍ هائل في شـعبية رئيس

الـوزراء الجديـد، حيـث أشـارت أحدهـا إلى ارتفاع نسـبة مـن يؤيدونه كمرشـحٍ محتمـل للانتخابات الرئاسـية الروسـية مـن ٢٪ عنـد تسـلمه المنصب في أغسـطس، إلى ٢٧٪ في شـهر أكتوبر بفـارق نقطة واحـدة عن السـياسي الـروسي بريماكوف.

لقـد تحـول الـرأي العام الروسـي تحـولاً جذريـاً فيمـا يتعلـق بدعمـه للحرب في الشيشـان ويمكـن بيان ذلـك من خلال مـا يلي:

« نظـر معظم الشـعب الروسي إلى الحرب الشيشـانية الأولى على أنها حـرب لا أخلاقية، لكن الحال انقلـب في الحملـة العسـكرية الثانيـة في الشيشـان، إذ اعتـبروا عـدم مسـاندتها هـو اللاأخلاقـي. ففي اسـتطلاع أُجـري في كانـون الثـاني من العـام ١٩٩٥، طالـب ٥٤ بالمائة من المشـتركين في الاسـتطلاع بسـحب القـوات الروسـية من الشيشـان (٢٧ بالمائة كانوا يدعمـون وجود القوات هنـاك، و١٩ بالمائة لم يكـن لهـم رأي). بالمقابـل، في تشريـن الثـاني وكانـون الأول مـن العـام ١٩٩٩، وافق ما بـين ٦١ إلى ٧٠ بالمائـة مـن المشـتركين عـلى العمليـة العسـكرية في الشيشـان. وحتى عندمـا أصبحـت الإصابات الفادحـة معلومـة لـدى الجميـع في تمـوز ٢٠٠٠ – آلاف مـن القتـلى والجرحـى بـين صفـوف القوات الروسـية والمدنيـين – كان ٧٠ بالمائـة مـن الشـعب الـروسي يعتقـدون بأنـه لا ينبغـي أن تكـون هناك مفاوضـات في الشيشـان، وأن النظـام يجـب أن يُفـرض فرضاً عـلى الجمهورية بمسـاعدة الجيش.»

ا.هـــ من كتاب «روسيا بوتين» لليليا شفيتسوفا

وهكذا بدأ القيصر الجديد حملته الجوية الممهدة للحرب على الشيشان بتأييدٍ شعبيٍ غاب لعقود..

وعـلى الرغـم من أن الخطة التـي وضعها المجاهدون لخـوض الحرب الثانية كانـت جيدة من بعض النواحـي العسـكرية وقـد ظهـر ذلك في الصمـود البطـولي للمجاهديـن في السـنين الأولى للحرب إذا مـا أخذنا في الاعتبـار العوامل الجيوسياسـية، وكذلك العوامـل الدولية التي طـرأت أثناءها، وكذلك عـلى الجانـب السـياسي فقـد حـوت تفكـيراً اسـتراتيجياً سـديداً بتحويـل الشيشـان مـن «بـؤرة تمرد» محـاصرة وحيـدة يحيـط بهـا الروس مـن كل جانـب إلى «عين العاصفـة» التي تهـب على كامـل القوقاز المسـلم لتسـتثير بركانـه الخامـد في وجـه الاحتـلال الـروسي؛ إلا أنهـا قد احتـوت عـلى نقطتي ضعف

أصابت الجهاد الشيشاني في مقتل:-

أ- النقطة الأولى

الاعتماد على بقاء النظام الروسي على حاله المتهالك في تحقيق النصر، فمن المعلوم عند المتابعين للشأن الروسي أن الكرملين لا يخضع سياسياً لعدوه الأقل منه قوة إلا بإحدى طريقين، الأول الانهيار والتراجع الاقتصادي الذي يصبح معه النظام غير قادر على مواصلة الحرب كما بدا في الانسحاب الروسي من أفغانستان أواخر عهد ميخائيل جورباتشوف يوم عانى الشعب الروسي من الجوع بكل ما تحمله الكلمة من معنى، والثاني هو تخلخل النظام السياسي ونشوء الأجنحة المتصارعة بداخله بما يمكن من اللعب على هذا الوتر وتحقيق النصر كما حدث في نهاية حرب الشيشان الأولى؛ ولكن القصور السياسي دفع قادة المجاهدين إلى الاعتقاد بأن تصاعد الاستنزاف البشري للجيش الروسي خلال سنوات الحرب سيدفع الكرملين إلى نهاية مشابهة للحرب الأولى دون وجود أحد السببين سالفي الذكر، وفي ذلك يقول خطاب –رحمه الله- :

«ليس من الممكن أن يفوزوا بهذه الحرب، منذ سنتين، لم يستطيعوا فعل شيء معنا، اليوم الروس قد فهموا جيداً أن الحل العسكري للمشكلة لن يساعدهم، فقد ثارت الأمة بالكامل على روسيا، عرفنا بالتأكيد ما هي الطريق التي يجب أن نسلكها عندما قبلنا هذه الحرب، نحن اليوم أقوى مما مضى، يومياً ندمر القوة البشرية الكثيرة وقوات الهندسة، مع ذلك روسيا تحاول أن تخفي خسائرها، يظهرون أن شخص واحد قتل، وواحد ونصف جرح، لقد فزنا بهذه الحرب بالفعل، لكن الروس مازالوا لا يعترفون بذلك، فيما بعد سيعرفون ما هو الأفضل لهم»

إن غياب الخطة البديلة التي تستطيع التعامل مع الواقع الروسي الجديد الذي امتاز بعودة هيبة نظام الحكم واستقراره، وكذلك عودة الاقتصاد نحو التعافي التدريجي؛ من خلال تقسيم الصراع إلى مراحل طويلة زمنياً بغير استنزاف للموارد والكوادر والقدرات في السنوات الأولى من المعركة وكأنها سنوات الحسم، والتخطيط الاستراتيجي المرن الذي يتجاوب مع المتغيرات؛ هذا الغياب أدى في نهاية المطاف إلى انحسار الجهاد في الشيشان رويداً رويداً بدلاً من تمدده مع مرور الزمن.

ب- النقطة الثانية:

غياب الخطة المحكمة المسبقة للتعامل مع التيار المتوقع ظهوره من بين صفوف التيار القومي «المعتدل» في الشيشان، فخلال الحرب الأولى ظهرت أمارات في بعض المناطق على وجود قابلية لتشكيل مشروع موالٍ للروس من خلال القرى التي عقدت اتفاقيات تهدئة مع القوات الزاحفة ومنعت المجاهدين من الدخول إليها، بالإضافة إلى الانكشاف المتصاعد لنوايا أحمد قاديروف العدائية تجاه المشروع الجهادي منذ تولي سليم خان يندربييف الرئاسة، مروراً بانتخاب أصلان مسخادوف وموقفه المضاد لتطبيق الشريعة والعازف على وتر إحياء العصبية الصوفية في المجتمع لمواجهة «الوهابيين» الآتين من خارج البلاد، وصولاً إلى شجبه لعمليات داغستان ودعوته لأصلان مسخادوف للصدام مع التيار الإسلامي في الشيشان بزعامة شامل والقضاء عليه حيث يقول في هذا الصدد:

«لقد بقيت مؤيداً لمسخادوف في وجه خصومه، وذلك لأنه رئيس منتخب من قبل الشعب الشيشاني، ودرءاً لاندلاع حرب أهلية، أما بشأن الحرب الثانية في الشيشان فكثيرون يسألونني، لماذا تغير موقفك؟ الروس كانوا بالأمس، وها هم يعودون مجدداً؟ بالأمس كنت تسمي المقاومة ضدهم جهاد، أما اليوم فلماذا؟ وجوهر المسألة أن الرئيسين (يلتسين) ومسخادوف وقعا اتفاق صلح عام ١٩٩٦.

وإذا كنا نعتبر أنفسنا كياناً مستقلاً فقد حدث من قبلنا، نحن الشيشانيين انتهاك وعدوان على روسيا الفيدرالية فوق أراضي الداغستان، وأنا أعتبر ذلك خيانة من جانبنا لاتفاقية الصلح الموقعة، لقد دخل المقاتلون إلى المناطق الأكثر تديناً، وحيث لا يوجد أناس ناطقون باللغة الروسية، وعندما دخلوا إلى هناك مع (بوزوفيرفيش) وهذا مسجل على كاسيت فيديو، سمع المهاجمون الآذان، فتعجب بعض المقاتلين العرب المشاركون بالهجوم، والذين خُدعوا بأمر الجهاد ضد الكفار، فطلبوا العودة، لكن تمت تصفيتهم في اللحظة الأخيرة.

لقد قتل عشرات الأشخاص؟ وكان الهدف من ذلك الهجوم إشعال حرب جديدة ضد الشيشان، وقد نجحوا في ذلك، لماذا أقول: إن الحرب الأخيرة لا علاقة لها بالجهاد؟ في العام

خمسة وتسعين اقتحمت القوات الروسية أراضينا، أما في العام ١٩٩٩م فنحن الذين استدرجنا الجيش الروسي إلى أراضينا، علماً أنه كان بإمكاننا تفادي هذا الوضع.

وبالتالي فإن ما نشهده ليس جهاداً، وبدلا من بناء حياة كريمة لشعبنا حوّل مسخادوف جمهورية الشيشان إلى مستنقع العناصر الإجرامية من كافة أرجاء العالم، وفي حينه قلت لمسخادوف: إن الفرصة الوحيدة لتفادي الحرب تتمثل في إصدار أمر بطرد كافة الأجانب، وعلى رأسهم (خطّاب) بالإضافة إلى تجريد شامل باساييف من كافة الرتب والمسؤوليات، ورفع دعوى ضده ولو كإجراء شكلي يهدف تحاشي انتقال الحرب إلى أراضينا.

بالإضافة أيضاً إلى خطر كافة الحركات المتطرفة مهما كانت تسمياتها، وكان جوابه إن هذا ما تريده موسكو، ولذلك لن أقدم على هذه الخطوة، وهنا طرقت بنا الطرق»

لقد كان الرجل واضحاً شديد الوضوح في تسويق نفسه لموسكو كحاكمٍ جديدٍ محتمل، خاصة مع خلفيته الدينية والطرقيّة الصوفية التي تعطيه شرعية عند بعض الجهال من البسطاء، إلا أن عدم تقدير خطره الحقيقي على المشروع الجهادي بشكلٍ مسبق أذاق المسلمين شره وشر ولده إلى اليوم، وهو واقع متكرر بصورٍ مختلفة في ساحات الجهاد والله المستعان ....



المحور الرابع

الحرب الشيشانية الثانية

بـدأت الحـرب الروسـية الثانيـة عـلى الشيشـان بحملـةٍ جويـة واسـعة النطـاق، وحشـية الطابع، تسـتهدف مـا بقـي مـن مفاصـل الحيـاة في الجمهوريـة الناشـئة التـي لم تتعـافَ بعـد مـن آثـار الحرب الأولى التـي أتـت عـلى الأخـضر واليابـس فيهـا.

إن بوتـين قـد تعلم الدرس جيـداً من الحرب الأولى مـن حيث أهمية كفاءة وفعالية السـلاح الجوي في تقليـل الخسـائر مـن الجنـود عـلى الأرض، ولم يكـن كذلـك قد نـسي الحملـة الأمريكيـة الجوية على حلفائـه الـصرب أثنـاء حرب كوسـوفو والتي أجـبرت نظـام بلجراد عـلى الركوع والخضـوع للإرادة الغربيـة؛ فلـم يكـن الفخ الـذي وقعت فيه القـوات الروسـية في معركـة جـروزني الأولى بداية الحرب السـابقة، حـين اقتحمـت القـوات المدرعة وسـط المدينـة دون القضـاء على بـؤر المقاومـة بداخلها، ما أوقـع فيهـا مجـزرةً لم يـزل الـروس يذكرونها إلى اليـوم؛ إلا هاجسـاً يطـارد فلاديمير بوتين ويخشـى أن يتسـبب إن تكـرر في إزاحته عـن منصبه.

وبعـد التمهيـد الجـوي الكثيـف عـلى الأراضي الشيشـانية، قـرر بوتـين الدفـع بقواته البريـة وفقاً للخطـة المعـدة في مـارس 1999م بأعـداد مضاعفـة إذا مـا قورنت بعدد القـوات الروسـية في الحرب الأولى، وبالتـالي ووفقـاً للمنطـق العسـكري بـدأت المـدن الشيشـانية في السـقوط تباعاً حتى سـقطت العاصمـة جـروزني بعدمـا تركتهـا الآلة العسـكرية الروسـية أثـراً بعد عين.

وقـد حـاول بوتين من خـلال حملته الدعائية التي اسـتهدفت الـرأي العام الروسي أثنـاء تفجيرات الشـقق في موسـكو وبعـد انطلاق الحـرب، تعويض الضعـف العام للجيـش الروسي الـذي وصل في هـذه الآونـة إلى أضعـف حالاته العسـكرية والتنظيمية على مدار عقـود، بالروح «العسـكرية الوطنية» التـي انتـشرت في الأوسـاط الشـعبية الروسـية لإحـداث بعـض التـوازن في صفوف الجيـش وخاصة قاعدتـه السـفلى بـما يؤهلـه لتحقيق انتصـارات أولية سريعة تسـاعد بوتين على هندسـة عمليـة تنصيبه على عـرش الكرملين.

ولم تكـن سياسـة بوتـين في التعامـل مـع الجوانـب الدينية للـصراع مع بداية الحـرب الثانيـة، مماثلة أو حتـى مقاربـة لسياسـة يلتسـين خـلال الحـرب الأولى، فقـد حـرص بوتين عـلى اسـتجلاب التأييد الإسـلامي مـن المؤسسـات الدينيـة الرسـمية في الجمهوريـات الخاضعـة لسـيطرته شـمالي القوقـاز، بجانـب إظهـار دعـم الكنيسـة الأرثوذكسـية للعمليـات الحربية في الشيشـان.

فقد صرح مع بداية الحرب مفتي جمهورية داغسـتان أحمد حاجي عبد اللايف أن شـامل باسـاييف ومـن معـه لا يمكـن تسـميتهم بالمجاهديـن، لأنهـم لا يجاهـدون لإعـلاء كلمـة الله، بـل يدعـون إلى الغلـو والتطوف واسـتباحة دماء المسـلمين، بل ودعا المسـلمين في داغسـتان للدعاء للقوات الروسـية في الشيشـان الذيـن يحاربـون مـن أجـل دولـة روسـية موحـدة، ومن أجـل رخـاء وطمأنينة الشـعب الداغستاني!!

وكذلـك اسـتقبل فلاديمـير بوتـين مجلـس الإفتـاء في شـمال القوقـاز بموسـكو، وأكد أنـه لا يجب تصنيـف جميـع المسـلمين في خانة الإرهابيـين، ورد عليه رئيـس المجلس مفتي جمهورية إنجوشـيا محمد ألبوجاتشـييف أن «الإرهابيـين» الذين يرفعون شـعارات إسـلامية في الشيشـان لا يربطهم بالإسـلام رابـط، لأن الإسـلام دين يدعو للتسـامح والسـلم!!

وعـلى الجانـب الآخـر حرصـت الكنيسـة الأرثوذكسـية الروسـية عـلى دعـم الجنـود المتجهين إلى الأراضي الشيشـانية و»مباركتهـم» بـل والدخـول معهـم إلى المناطـق التـي سـيطروا عليهـا حديثاً من قبضـة «الإرهابيـين» ليباركوهـا كذلك.

وهـذه أحـد جوانـب «الحـرب الهجينـة» التي طبعـت الحـرب الثانية، فيصنـع الكرملين مشـهدين مختلفـين تمـام الاختـلاف، ويصـدّر كل مشـهد إلى الفئة المسـتهدفة لإخضاعهـا لأهداف موسـكو من الحرب.

وفي تلـك الأثنـاء وبالتزامـن مـع الاجتيـاح البري الروسي لمـدن الشيشـان الواحدة تلـو الأخرى، أصـدر أصـلان مسـخادوف أمـراً بإعفاء أحمـد قاديـروف من منصـب مفتي الشيشـان، واتهمه بشـق صـف الأمـة الشيشـانية لرفضـه إعلان الجهـاد ضـد الغزو الـروسي، وإعلانـه ضرورة تركيـز الحرب عـلى «التطـرف الأصـولي» في البلاد.

لقـد كان قاديـروف يخطط لكسـب ود موسـكو ولم يجد أفضل من سـليم ياماداييـف القائد الميداني بمدينـة جوديرميـس (ثاني كـبرى المدن الشيشـانية) ليتحالف معه في سـبيل الخيانة، فبـدأ بإقناع بعض القـرى بطـرد المجاهديـن منهـا وعقـد اتفاقيـات تهدئـة مـع الـروس تجنبـاً للدمـار وتمهيـداً لتفاهمات سياسـية مـع القـوات الغازية تحوز بموجبها هـذه القرى بعض الامتيـازات، إلا أن النجـاح الأبرز هو قيادتـه للمفاوضـات مـع الجيش الـروسي فيما يتعلـق بمدينـة جوديرميس نيابـةً عن ياماداييـف والتي أسـفرت في النهايـة عن تسـليم المدينـة للجيش الـروسي دون إطلاق طلقـةٍ واحدة.

حينهـا أمـر أصلان مسـخادوف بالقبـض على قاديـروف وإعدامـه بتهمـة الخيانة العظمـى ولكن لات حـين منـدم، حيـث أدرك حاكـم الكرملين الجديـد أنه قد وجـد ضالته التي ربما تحسـم له الحرب في النهايـة، فبـدأ الإعـداد لتـولي المفتي الخائـن زمـام «الإدارة المدنيـة» العميلة في جـروزني للشروع في البنـاء التدريجي للمليشـيات المحليـة الحليفة.

لقـد تجـذرت الصوفيـة كمنهـج حياة متكامـل مرتبط بكافـة نواحي عيش الشـعب الشيشـاني على تلـك الأرض منـذ قـرون، ثم قـادت الحـركات الصوفية تيـارات الجهاد ضـد الاحتلال الـروسي منذ القـرن الثامـن عـشر بدايـةً مـن الإمـام منصـور وصـولاً إلى الإمام شـامل الداغسـتاني الذي سُـميت حركتـه بحركـة «المريديـن" والتـي اسـتمرت عـشرات السـنين تقاتـل القـوات الغازية، لتشـكل بعد ذلـك التنظيـمات الصوفيـة الحصن المنيـع الذي دافـع عن الإسـلام ضد الإزالـة الممنهجة التـي اتبعها الـروس عـلى مدار عقـود في الحقبتـين القيصرية والسـوفييتية كـما ذكرنا ذلـك بالتفصيـل فـي المحور الأول؛ ووفقـاً لطبيعـة الصراعـات التـي تختلـط فيهـا القوميـة بالديـن حيـث يتمايـز طرفـا الـصراع الاسـتئصالي دينيـاً وقوميـاً واجتماعيـاً كـما هو الحـال في القوقـاز وكذلك البلقـان، فإن مكونـات هوية الأمـة تتجـذر عميقـاً في وجدان الشـعب على ما بها مـن علل بحيث يصعـب تماماً السـعي إلى تغييرها ويُعـد اسـتهدافاً للهويـة التاريخيـة لأهل تلـك البلاد.

وهـذا هو الوتر الـذي لعب عليه قاديروف لاكتسـاب الشرعية عند بعض الفئـات الجاهلة والمغيبة مـن الشـعب، فعـلى الرغـم من لـين وسـعة فقه طـلاب العلـم المهاجريـن الذين بـدأوا في نـشر العلم الشرعـي في الشيشـان وافتتـاح المراكـز الدعويـة، وتدرجهم المتـأني في التعامـل مع البدع الراسـخة في

المجتمع، إلا أن هـذه الحركـة كانت بمثابة التكأة المناسـبة لحـرب التيار المجاهد في الداخل الشيشـاني، حيث أن أي «شـكل» للإسـلام بخـلاف الصوفية عند بعـض القطاعات يمثل هجومـاً على معتقدات ورثوهـا عـن الأجداد ولا يجوز المسـاس بهـا بحال.

وقد عبر قاديروف عن تلك الفكرة حين قال:

”أنـا لا أسـتطيع التنقـل بـدون حـراس، ومع ذلـك وبالرغم من الحراسـة فقـد تأذيت عـلى أيدي الوهابيـين خـسرت خمسـة أفراد من حـراسي، لقـد فجروهم لأني أعلنت أن الإسـلام العـصري الذي كان سـائدا في أرض الشيشـان سـيعود، ولـن أسـمح بتغيـيره، ولـن أسـمح بمجـيء تيـار آخـر يزرع الفرقـة بين الشـعب، لن أسـمح من يسـميهم كتـاب الله أهل دم، نحـن عندنا مذهـب الصوفية منذ أن اعتنقنـا الإسـلام، وبالتـالي هـل جميعنا مشركـون على مـدى الأجيـال، قبل أن يظهـر عندنا أبـو عمر، وعبد الرحمـن، وخطّـاب، وغيرهم“

وعـلى الرغـم مـن بـراءة الصوفيـة المجاهـدة التـي أخرجت أمثـال الإمام منصـور والإمام شـامل مـن مذهـب هـذا المرتـد وإسـلامه العـصري المزعـوم، حيـث لـو كانـوا بـين أظهرنا مـا وقفـوا إلا في صفـوف المجاهديـن الثابتـين قـادةً للسرايـا والكتائـب؛ غـير أن القطاعات الجاهلـة المغيبة المسـتهدفة بتلـك الدعايـة لا تسـتطيع التمييز بـين تفاصيـل الأمور وتعتمـد على «الأكاذيـب المعلبة» غـير القابلة للنقاش..

ولـد قاديـروف في المنفى القوقازي في كازاخسـتان بوسـط آسـيا، وتعلـم بعضاً من القرآن في سـنٍ صغـيرة، وقـد كان جـده شـيخاً صوفياً على رأس مدرسـةٍ لتعليـم أهل البـلاد، وهو ما أكسبه شرعية دينيـة مـن حيـث النسـب والطريقـة القادرية التـي ينتمي إليهـا، ومعلـومٌ ما هـي أهمية مكانـة العائلة في التيـارات الصوفية!!

وفي العـام ١٩٩٤م عينـه جوهـر دوداييـف نائبـاً للمفتي، قبل أن يجـري تنصيبه في منصـب الإفتاء العـام في الشيشـان عام ١٩٩٥م وسـط الحرب المشـتعلة اغـتراراً بموقفـه المؤيد للجهاد آنـذاك، حيث كان مـن أقواله:

"إذا كان تعداد الشيشان مليون نسمة، وتعداد سكان روسيا 150 مليون نسمة؛ فلو قتل كل واحد منا 150 روسياً لتمكنا من تحقيق النصر"

حيث شحذ المجاهدون بأيديهم السكين الذي استخدمه العدو لذبحهم، بتسرعهم في تقديم من ليس أهلاً أن يكون في صفوفهم فضلاً عن أن يتولى التوقيع عن رب العالمين...

وقد لعب قاديروف على وتر تدهور المعيشة نتيجة الحروب المتتالية لفلسفة خيانته وتقريبها لعقول وقلوب فئةٍ من عوام الناس الذين لا يهتمون في هذه الحياة بغير الملبس والمسكن والمأكل بغض النظر عن كونهم يعيشون عبيداً في جمهورية محتلة من السيد الروسي، أو يعيشون في جمهورية مستقلة يعلوها أمر دينهم.

وقد أفاض قاديروف كثيراً في هذه الوعود، ومن ذلك قوله:

" لا أعتبر أن الحرية والاستقلال لشعبي يتمثلون في تأمين العمل (الأمني) وإذا كنت قادراً وبدون أي عوائق أن أمارس الشعائر الدينية، وافتتاح المساجد، والمدارس، والتعليم فأي حريةٍ أخرى تلزمنا، وخلافاً للشيشانيين الذين يعيشون في الإمارات مثلاً أو تركيا أو أوروبا، وينادون بالاستقلال والحرية، فإن الشيشاني العادي الذي لم يأخذ مرتبه منذ سنوات سيكون جوابه الحرية في أن أملك عملاً، وخبزاً، وأن لا يقتلني أحد، وها نحن قد وصلنا بأنفسنا أو أنهم قد أوصلونا، وأعني مسخادوف وغيره إلى هذا الاستنتاج بعبارة أخرى، نحن لسنا بحاجة إلى أي حرية أخرى سوى العمل، والخير»

إن هذه الفلسفة التي تتناقض بالأساس مع أي تحركٍ سابق لذات الشعب لنيل استقلاله وحريته وكرامته، يتغذى عليها المتطفلون والخونة في أوقات الضيق والأزمة لتمرير صفقاتهم مع أسيادهم دون اعتراض من يئس من أبناء الشعب من طول وعظيم ثمن تحقيق النصر..

ومما يُذكر في هذا الجانب، أن فلاديمير بوتين قد تعلّم من منهج سلفه بوريس يلتسين خلال الحرب الأولى في التعامل مع المجتمع الشيشاني المحلي، فبوريس يلتسين قد عيّن بكل سفاهة رمز العهد الشيوعي البائد زافغاييف دون النظر لعدم وجود أي نوعٍ من الظهير الشعبي أياً كان

حجمه لهذا الخيار، والذي لا يشكّل على جانبٍ آخر بحال خط الرجعة الذي يمكن لفئات من المقاتلين «المتمردين» أن يرجعوا إليه عند اشتداد الضغط عليهم.

ولذلك راعى بوتين هذين الاعتبارين عند التصميم على بناء مشروع موسكو في جروزني حول أحمد قاديروف المفتي السابق للمجاهدين الشيشان الذي تربطه علاقات واسعة مع التيار القومي «المعتدل» بما يمكنه مع مرور الوقت من استقطاب الفئات المتساقطة منه، والزعيم الصوفي الذي يحظى بتقدير بعض الفئات البسيطة المغيبة.

وإذ لم يكن المشروع القاديروفي قد نضج واكتمل بناؤه بعد، فقد كان المجاهدون الشيشان وعلى الرغم من انحيازهم إلى الجبال قادرين على تصعيد العمليات العسكرية والأمنية إلى وتيرةٍ مرتفعة في الداخل الروسي والداخل الشيشاني على حدٍ سواء.

ففي الثامن من أغسطس عام ٢٠٠٠م هز انفجار عنيف الطريق السفلي أسفل ساحة بوشكين وسط موسكو مخلفاً عشرات القتلى والعديد من الجرحى، وقد كان هذا التفجير مجرد رمز للعمليات الشيشانية الدورية في الداخل الروسي التي تخترق الجدار الأمني للأجهزة الأمنية في موسكو بكل سلاسة، حتى تسرب اليأس إلى الصحافة الروسية التي كتبت:

"علينا أن نعتاد على حقيقة أن أي شيء يمكن أن يحدث في أي وقت وفي أي مكان"

لقد أفقدت الحركة الجهادية المواطن الروسي أمانه في عقر داره، وما اصطنعه بوتين قبل سنة من خلال سلسلة تفجيرات الشقق السكنية صار حقيقةً واقعة يعيشها الروس يوماً بعد يوم.

وفي الداخل الشيشاني لم يكن حال القوات الروسية بأفضل من جبهتهم الداخلية، فبعد مضي ما يقارب العام على الحرب كان عدد قتلى بين صفوف القوات الروسية قد بلغ ٢٦٠٠ قتيل وفق الإحصاءات «الرسمية» البعيدة عن الواقع، بالتوازي مع التصاعد المطرد لعمليات المجاهدين المُؤيَّدين بقطاعات واسعة من الشعب التي ترفدهم بالمقاتلين والدعم، خصوصاً مع تزايد الإجرام الروسي الذي خلّف عشرات الآلاف من القتلى في صفوف عوام المسلمين.

وقد انعكس ذلك الوضع على تململ الرأي العام الذي كان مناصراً للحرب قبل عام، فقد

أظهرت بعض استطلاعات الرأي في نهاية شهر أغسطس تعليق ٥٠٪ من المشاركين بشيء من الانزعاج والإحباط على الحرب الدائرة في الشيشان قائلين بأنهم لا يرون نهاية قريبة لها، فيما أشار ٤١٪ إلى الخسائر الثقيلة للجيش الروسي، و٢٦٪ فقط إلى الخسائر بين المدنيين الشيشان، ومع ذلك فإن نصفهم كانوا يشعرون بوجوب استمرار العمليات العسكرية هناك وبأنه لا سبيل آخر غير ذلك، و٣٩٪ فقط كانوا يريدون إجراء مفاوضات مع القيادة الشيشانية.

فعلى الرغم من أن حرب بوتين في الشيشان لم تفقد زخمها الشعبي إلا أن تسرب القلق وبوادر اليأس إلى الرأي العام يهدد سلطة الكرملين في تلك المرحلة المبكرة من ولايته الرئاسية الأولى حيث لم يمض على انتخابه الرسمي سوى بضعة أشهر؛ ولم يكن للجيش الروسي من جديدٍ يفعله سوى ملاحقة الأشباح في الجبال والغابات بعد أن أتم السيطرة على كامل الأراضي الشيشانية؛ لقد وقع الروس في الفخ الذي وقعوا فيه قبل أربع سنوات دون حلٍ ناجعٍ ناضج حتى الآن.

واستمراراً للحرب الطاحنة، شهد العام 2001م زخماً مرتفعاً لعمليات المجاهدين الشيشان في الداخل الشيشاني والروسي على حدٍ سواء، إلا أن الحدث الأبرز كان غزوات الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك وواشنطن!!

نظراً للتأثيرات الجوهرية والتاريخية الناجمة عن الغزوات المباركات، والتي عمت العالم الإسلامي بل العالم أجمع من شرقه لغربه، فقد نالت القضية الشيشانية حظها من هذه التأثيرات والتي تركزت في نقطتين أساسيتين:-

الأولى :

بدء اتساع الهوة وظهور الافتراق الواضح بين التيار القومي «المعتدل» بزعامة أصلان مسخادوف والتيار الإسلامي المجاهد بزعامة شامل باساييف.

فقد حرصت وزارة خارجية مسخادوف برئاسة إلياس أحمدوف على دحض التوصيف الروسي للحرب الشيشانية بأنها «حرب على الإرهاب» من خلال التبرؤ من الحركات التي يصنفها المجتمع الغربي على قوائم الإرهاب وفي مقدمتها تنظيم القاعدة.

حيث أشار إلى أربعة فروق رئيسية تميز «النضال الشيشاني» عن «الإرهاب الدولي»:-

أ- أن الصراع الشيشاني تاريخي قديم، على عكس الإرهاب الدولي المعاصر والموجه للغرب .

ب- أن الأجندة متباعدة بين الطرفين، فبينما الشيشان يحاربون من أجل الدولة فإن الإرهاب في حربٍ ضد نظام الدولة.

ج- أن المقاومة الشيشانية شعبية وقومية، بينما الإرهاب الدولي لا يستند إلى أي شعبية.

ء- أن المقاومة الشيشانية تخوض حرباً دفاعية، على النقيض من الإرهاب الدولي.

وبهذا بدا واضحاً أن جناح أصلان مسخادوف قد اتخذ قراره بالافتراق الكامل، والعزل التام لنفسه عن جناح باساييف من خلال التأصيل لقومية وقطرية و»اعتدال» المبادئ التي تقوم عليها القضية الشيشانية أملاً في دعمٍ غربي لمسارٍ تفاوضي مع موسكو يساعد في إنهاء «النزاع».

وقد فطن تيار باساييف لتلك الخطوة جيداً، وأعلن رفضه لأي مفاوضات يخوضها هذا التيار تتنازل ولو عن شبر من الأراضي الشيشانية المسلمة، مستبعدين فكرة التفاوض في ظل الظرف الراهن؛ وقد عبر القائد خطّاب عن ذلك التوجه والموقف قائلاً:

"لا يفكر المجاهدون في المفاوضات. كما قال شامل سوف يكون كل شيء طبقاً للشريعة، وأي شيء يكون هكذا سيتقبله المجاهدون، وأي شيء ضده لن يقبل، إذا غادرت جيوشهم فذلك ممكن، لكن بينما تكون جيوشهم هنا، حتى على متر واحد لهذه الأرض، الحرب لن تنتهي، من يريد دعه يتكلم معهم، ومن هو جاهز فليتفاوض، ولكن يجب أن لا تبقى هنا ولا أي وحدة هندسة، ولا جندي، لا ينبغي أن تنتهي المفاوضات، كما في الحرب الأخيرة»

وقد كانت هذه النقطة المحورية لهذا الانقسام الذي سيستمر في التصاعد مع تتابع الأحداث وصولاً للقطيعة التامة..

والثانية:

بـدء التطبيـق العنيف لسياسـة تجفيف المنابـع الأمريكية التي تسـتهدف القضاء عـلى مصادر تمويل «الإرهـاب» حـول العـالم، تلك السياسـة التـي لم تميز بين سـاحةٍ جهادية وأخـرى، مما أصـاب التدفق المـالي المتـضرر بالأصـل نتيجـة إحكام الحصـار الروسي خـلال العامين الأولـين من الحـرب في مقتلٍ، وهو ما سـيظهر أثـره بالتدريـج خلال السـنوات التالية.

بالإضافـة إلى تتابـع ظهـور القضايـا الإسـلامية في سـاحاتٍ جديـدة كأفغانسـتان والعـراق والتي بـدأت في سـحب الاهتـمام الإسـلامي العـام تدريجيـاً نحوهـا وتجاه مـا نتج عـن الغـزوات المباركات مـن نتائـجٍ وتفاعـلات عـلى المسـتوى الإسـلامي والـدولي؛ مـا أثـر بالسـلب عـلى الدعم الإسـلامي للقضيـة الشيشـانية بالمـال والسـلاح والإعـلام والضغـط، وزاد الظـروف الموضوعية للقتـال صعوبة وعسر...

وبعـد دخـول الحـرب عامهـا الثالـث، وعجـز القـوات العسـكرية عـن حسـم الـصراع لصالـح موسـكو، قـررت القيـادة الروسـية إنهـاء «المرحلة العسـكرية»، وعهـدت بتنسـيق العمليـات الميدانية إلى جهـاز الأمـن الفيـدرالي الـروسي (اف اس بي).

هدفـت القيـادة الروسـية إلى مقاربـة الصراع مقاربة أمنية واسـتخباراتية تتناسـب مـع واقع حرب العصابـات في شـمال القوقاز، وتسـتهدف النجـاح في اغتيال «رؤوس التمرد الشيشـاني» لمـا يتبع ذلك مـن تفكك الحركـة وانقسـامها وتراجع زخمها.

وبالفعـل نجحـت هـذه السياسـة جزئيـاً خـلال هـذا العـام في جانـب تنفيـذ الاغتيـالات، حيث أدت رسـالة مسـمومة سلمها جاسـوس تابع للاسـتخبارات الروسـية للقائد خطّاب إلى استشهاده في العشريـن مـن مارس عـام ٢٠٠٢م.

وعـلى الرغـم مـن ذلـك النجـاح الجزئـي اسـتخباراتياً، إلا أن الـروس قـد غاصـوا في الوحـل إلى أذنيهـم عسـكرياً، فبالتزامـن مع تصاعـد عمليـات المجاهدين الشيشـان وارتفاع وتيرتهـا المطردة التي لم يسـتطع الكرملـين كسر حـدة تصاعدها منذ ثلاث سـنين، أعلنت موسـكو بشـكلٍ رسـمي أن عدد

قتلاها خلال حربي الشيشان الأولى والثانية حتى عام ٢٠٠٢ بلغ ١٥٠٠٠ قتيل، وهي نفس حصيلة خسائر الجيش السوفييتي خلال حرب أفغانستان التي امتدت لعشر سنين، حيث بلغ نصيب الحرب الثانية من القتلى وفقاً للإحصائية الرسمية ٤٢٤٩ جندياً روسياً، إلا أن ناشطي «حقوق الإنسان» كذّبوا الإحصائية الرسمية الصادرة عن الحكومة، وقالوا أن خسائر الجيش الروسي أفدح من ذلك بكثير، فوفقاً لممثل «لجنة أمهات الجنود» الذي كان يقوم بحملة لصالح حقوق أفراد الجيش، "فإن عدد القتلى من الجيش ينبغي أن يُضاعف مرتين أو ثلاث أو أربع".

وبالتالي كان الشعب الروسي في خريف عام 2002م قد بات مقتنعاً أن القوة العسكرية غير صالحة لحل المشكلة الشيشانية، حيث أعرب ١٧٪ فقط من الذين اشتركوا في أحد استطلاعات الرأي عن دعمهم للحل العسكري في الشيشان، بينما دعم ثلثا المشتركين الحل السلمي، ما مثّل انقلاباً في الرأي العام الروسي نحو الحرب الممتدة التي لا يبدو لها نهاية قريبة.

وهنا وقعت قيادة الكرملين في مأزقٍ حرج، فالحرب التي استطاع من خلالها فلاديمير بوتين بناء شرعيته الشعبية ومكنته من اعتلاء سدة الحكم دون منافسة تُذكر، تتحول الآن إلى مستنقع يقضي تدريجياً على آماله في الاستمرار على العرش، لذلك كان لابد من حلٍ ينهي هذه الدوامة التي لا تنتهي.

لذلك تداولت دوائر الحكم وصنع القرار في موسكو سيناريو التفاوض مع الجناح القومي « المعتدل» بزعامة أصلان مسخادوف لضرب التيار «الرادايكالي» بقيادة مسخادوف على أن يشتمل التفاوض على حل يعطي الدولة الشيشانية الحكم الذاتي تحت سيادة الدولة الروسية، أو الاتجاه نحو تقسيم الشيشان إلى منطقتين إحداهما خاضعة لروسيا والأخرى يقيم عليها الشيشانيون دولتهم المستقلة؛ لقد فهم الروس أن فرصة التفاوض مع أصلان مسخادوف تتراجع يوماً بعد يوم مع النفوذ المتنامي لتيار شامل باساييف الذي لا يمكن التفاهم معه بغير الانسحاب غير المشروط للقوات الروسية من الشيشان ما سيضرب هيبة الدولة الروسية التي بدأت في استعادة عافيتها في مقتل.

وقد عوّل الكرملين على الدعم الأمريكي والغربي لإنجاح المفاوضات مع أصلان مسخادوف الذي طالما حاول الإبقاء على نفسه كخيارٍ مقبولٍ سياسياً في العواصم الغربية..

إلا أن شامل باساييف وكتائبه الاستشهادية كان لهم رأيٌ آخر...

"قال شاب وهو يتحدث ببطء أمام الكاميرا ويجلس متربعاً أمام جهاز الحاسوب المحمول: «جئنا إلى العاصمة الروسية لوقف الحرب، أو أننا سنموت هنا في سبيل الله»، وكان الرجل الذي يتحدث هو موفسار باراييف، وهو مقاتل متمرد وابن شقيق أحد القادة الشيشان الأكثر شراسة، أربي باراييف، وكانت القيادة العسكرية الروسية في شمال القوقاز قد أعلنت انتصارها قبل أسبوعين، وقالت إن موفسار باراييف قُتل في ١٠ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٢م، متناسية أنه أُعلنت وفاته في العام الذي سبقه. اليوم باراييف في موسكو، وهو على مسافة ثلاثة أميال ونصف من الكرملين الذي يعمل فيه بوتين في مكتبه كعادته حتى وقت متأخر، ولن يغادره في الأيام الثلاثة المقبلة.

باراييف الذي مر عيد ميلاده الثالث والعشرين قبل ثلاثة أيام، وكان خجلاً منه، هو اليوم الوجه الجماهيري (لمفرزة خاصة) من المقاتلين؛ مكونة من ٢٢ رجلاً وتسع عشر امرأة، وصلوا إلى موسكو في وقت سابق من الشهر، وقد سافروا إما فرادى أو مثنى في القطارات والحافلات من داغستان، يتجنبون تدقيق الشرطة التي تخشى المسافرين القادمين من القفقاز، وقد جاءوا بأمر من (الأمير العسكري الأعلى) للشيشان، شامل باساييف، وإن كانوا قد أعلنوا ولاءهم على مضض لرئيسها المزعوم، أصلان مسخادوف. وقد أمضوا أسابيع في موسكو يستعدون لهجوم يعيد الحرب الدموية والوحشية إلى العاصمة، وأرادوا مكاناً عاماً يضمن احتجازاً جماعياً للرهائن من المواطنين الروس العاديين، وبعد أن فكروا في البرلمان، استقر رأيهم على مسرح.

والمسرح الذي اختاروه هو في شارع دوبروفكا جنوب غربي موسكو، القاعة التي لا تزال تعرف باسمها السوفييتي، قصر الثقافة لمصنع محمل الكريات رقم ١ الحكومي، وهناك جزء من المبنى خُصص للمثليين جنسياً ليكون نادياً لهم (يرتادونه) «وكان مأهولاً بأعضاء في البرلمان ورجال الأعمال البارزين، والسياسيين كذلك». كما يشاع، ويجري ترميمه وتحديثه. تنكر مقاتلو مجموعة باراييف بهيئة عمال بناء، ووضعوا خططاً لاقتحام المسرح.

كان المسرح يعرض أول عرض مسرحي موسيقي على نمط برودواي روسيا: نورد أوست،

استناداً إلى الرواية السوفييتية الشعبية، القبطانان، لمؤلفها فينيامين كافيرين. كانت القصة ميلودراما رومانسية امتدت طوال النصف الأول من القرن العشرين من استكشاف القطب الشمالي، وحصار لينينجراد في الحرب الوطنية العظمى. والتلحين الموسيقي لجورجي فاسيلييف، الذي أنفق أربعة ملايين دولار لإنتاجها والترويج لها على لوحات وملصقات موزعة في جميع أنحاء المدينة، فقد حسب أن الطبقة الوسطى الجديدة في روسيا التي استفادت من الازدهار الاقتصادي الذي أوصله بوتين إلى عامة الشعب، قد انتعشت بما يكفي لدفع ١٥ دولاراً سعراً للتذكرة. وفي ليلة العرض رقم ٣٢٣، في ٢٣ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٢م، تحرك الشيشان عندما بدأ الفصل الثاني، وكان الممثلون الذين يرتدون اللباس الموحد لطياري القوة الجوية للجيش الأحمر يرقصون رقصة النقر على المسرح عندما دخل رجل ملثم من الجهة اليسرى لخشبة المسرح، فأصيب أقرب ممثل له بالصدمة، ولكن معظم الجمهور اعتقد أن ذلك جزء من الأداء، إلى أن أطلق النار في السقف من بندقيته الرشاشة (إيه كيه ٤٧)، وانضم إليه مزيد من الرجال المقاتلين المموهين على خشبة المسرح.

أغلق مقاتلو باراييف القاعة الرئيسة، وفخخوا المبنى بالأسلاك والمتفجرات التي وضعوها عند الأعمدة التي تدعم شرفة المسرح، واتخذت النساء اللواتي يرتدين الحجاب الاسود مع نقوش عربية مواقع بين الجمهور؛ يحملن مسدسات، ويرتدين أحزمة بدت أنها أحزمة ناسفة، وهددن بتفجير أنفسهن إن أبدى أي شخص مقاومة، أو تجرأت السلطات على اقتحام المبنى، ولم تكن أعمارهن تتجاوز تسع عشرة سنة، وكن يعرفن بـ(الأرامل السود)، وهن إما زوجات المقاتلين الشيشان الذين لقوا حتفهم في الحرب أو بناتهم أو أخواتهم.

طوال سنوات القتال في الشيشان كانت التفجيرات الانتحارية نادرة، وأثبتت أن المرأة أصبحت نذيراً مرعباً في المنحى الذي اتخذته الحرب في الشيشان.

في الصالة صرح أحدهم: «نحن في سبيل الله»، وأضاف:»إذا متنا هنا فلن تكون النهاية، فهناك كثيرون ينتظرون، وسوف نستمر». كان في الصالة ٩١٢ شخصاً، ومن ضمنهم فريق العرض والطاقم المسرحي والأجانب من أوروبا والولايات المتحدة، وتكشف الحصار على مدى اليومين

المقبلين عن مشهد سوريالي متلفز، وخاطب بارابييف الرهائن أنهم يستطيعون استخدام هواتفهم للاتصال بأحبائهم وأقاربهم، ويخبروهم أنهم سيموتون إذا لم تنه السلطات الحرب في الشيشان.

اليوم يُحاصر بوتين أيضاً، فقد تعهد بالقضاء على العصابات في الشيشان، لكن الحرب مستمرة على الأرض منذ ثلاث سنوات، تلتهم الجنود الروس وآلاف الشيشان، ومن ثم فقد خسر الدعم الشعبي للحرب الذي كان في البداية، وأخفق الجيش في قمع التمرد، واليوم تخفق الـ (اف اس بي) أيضاً إخفاقاً ذريعاً في وقف هجمة في قلب موسكو. ألغى بوتين خططه للسفر إلى ألمانيا والبرتغال ثم إلى المكسيك، وكان من المقرر أن يلتقي جورج بوش مرة أخرى، والتقى مدير جهاز الأمن الفيدرالي، نيكولاي باتروشيف، وأمره بالاستعداد للهجوم على المسرح، وأجاز له التفاوض فقط لكسب الوقت، فأرسلت الـ (اف اس بي) ثلاث فرق من القوات الخاصة إلى مكان الحادث، واستنكر ذلك رئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف، ورأى أن الإنقاذ يمكن أن يؤدي إلى سقوط مئات القتلى، فأرسله بوتين بدلاً منه للقاء دولي في المكسيك، يريد –على ما يبدو– التخلص منه.

عدد من السياسيين البارزين والصحفيين، والضباط، ومن ضمنهم ممثل الشيشان في مجلس الدوما، أصلان بيك أصلاخانوف، اتصلوا هاتفياً بالخاطفين في الداخل، وسمحوا لهم بالتفاوض معهم في نهاية المطاف، فأُطلق على الفور تسعة وثلاثون رهينة، معظمهم من الأطفال. بعد ذلك دخل جريجوري يافلينسكي، الذي ينتمي إلى حزب يابلوكو، وانتقد الحرب انتقاداً لاذعاً، إلى المسرح في تلك الليلة بعد حصوله على موافقة من الكرملين، الذي بدا عاجزاً عن السيطرة على وسطاء يدخلون ويخرجون، أو على المكالمات الهاتفية، أو فيديو مطالب الإرهابيين في وقت لاحق. ذهل بوتين من المقاتلين «الصغار جداً»، كانوا مجرد أطفال عندما انهار الاتحاد السوفييتي وأعلنت الشيشان استقلالها عام ١٩٩١م، ويشك حتى في ذهابهم إلى المدرسة؛ فكل ما عرفوه تعلموه في ميدان المعركة في القفقاز، وقلما استطاعو التعبير عن مطالبهم، فضلاً عن التفاوض، وعندما طالبوا بوضع حد للحرب، سأل يافلينسكي: «ماذا يعني هذا؟». ثم غادر محبطاً، ولكن كان يأمل أن تقلل الخطوات الإضافية، ومن بينها إطلاق مزيد من الرهائن، من عدد الضحايا على الأقل. عاد يافلينسكي إلى بوتين في الكرملين، وشارك في سلسلة من الاجتماعات معه بشأن التقدم الذي تحققه المفاوضات، واتضح له وقتها أن بوتين يرأس أيضاً مجموعة منفصلة من

الاجتماعـات مـع باتروشـيف وبعـض الأمنيـين الآخريـن، وأن أناسـاً من أمثالـه لم يدعـوا للحضور.

في اليـوم الثـاني من الحصار أصبحـت الأوضاع في القاعة سـيئة جداً مع استسـلام الرهائن للجوع والجفـاف والإرهـاق والخـوف، وأطلـق الإرهابيـون النـار عـلى عـدة أشـخاص، مـن بينهـم امـرأة ركضـت داخـل المبنى لسـبب غير مفهـوم، وعنصر مغاويـر الـــ (اف اس بي) الذي اقترب مـن الفناء الخارجـي، وعـلى الرغم مـن ذلك واصل الوسـطاء الدخـول إلى المسـرح، ومنهم آنا بوليتكوفسـكايا، وهـي صحفيـة تقاريرها لاذعة مـن الشيشـان، وكانت قد تحـدت وأغضبت الجيـش والكرملين، وقد نجحـت هـي والطبيب البـارز، ليونيـد روشـال، في إقناع المقاتل الذي يسـمي نفسـه أبا بكر بالسـماح لهـا بإدخـال صناديـق مـن العصير للرهائـن. بوليتكوفسـكايا التـي ولـدت في نيويورك لدبلوماسـيين سـوفيتيين عُينـا في الأمـم المتحـدة، كانـت أحد الصحفيـين الـروس الشـجعان الذين غطـوا الحرب، وظلـت تنتقـد هـذه الحرب بكل مـا أوتيت من فصاحة وحماسـة. وتعاطفـت تقاريرها مـع جميع الذين عانـوا؛ مـن مجنديـن روس، ومتمرديـن، ومـا بينهما مـن مدنيين محاصريـن، لكنها كرهـت قـادة الجيش غـير الأكفيـاء وغـير الإنسـانيين، وعلى رأسـهم القائـد العام الـذي تظن أنه مـن جاء بهـذه الكارثة إلى القفقـاز. لقاؤهـا بـأبي بكـر جعلها تحـس بأن سـاقيها «تتحـولان إلى هـلام»، لكنها اسـتطاعت إقناعه بـأن يسـمح لهـا بلقاء اثنـين من الرهائـن؛ أحدهمـا صحفية تدعـى آنـا أدريانوفـا، التي تحدثت يائسـة وقالـت: «نحن كورسـك الثانية».

مزيـد مـن الإفراجات بـدا وشـيكاً، بعد أن سُـمح لرهينـة أمريكـي، وهو سـاندي بوكـر، بمهاتفة السـفارة الأمريكيـة، وأخـبر دبلوماسـياً هنـاك أن بارايـيـف وافـق عـلى إطـلاق الأجانـب في صبـاح اليـوم التـالي. أعلن الكرملين اسـتدعاء مبعـوث بوتـين إلى المنطقة الجنوبيـة فيكتور كازانتسـيف، كان المتمـردون يعتقـدون أنه سـيصل السـاعة العاشرة مـن صباح اليوم التـالي، لكنه لم يتوجه إلى موسـكو.

بـدأ اقتحـام المسـرح، بنـاء على أوامـر بوتـين، بعد السـاعة الخامسـة صباحـاً بوقت قصـير، وكان يبـدو أن الإرهابيـين اسـترخوا وتوقعـوا مزيـداً مـن المفاوضـات في اليـوم التـالي. وتسـللت القـوات الخاصـة الروسـية إلى المبنـى مـن خلال نـادي مثليـي الجنـس، وأدخلت أجهـزة تنصت لمعرفـة مواقع الإرهابيـين، وبسـبب الخـوف مـن الانفجـارات التـي قد تدمـر المبنـى، كان عليهـم قتـل الإرهابيين،

لا القبـض عليهـم. ولذلـك فقـد بـدا تسريـب الغـاز عديـم الرائحـة إلى القاعـة الرئيسـة، بضخه من خـلال أنظمـة التهويـة في المبنـى. كان الغـاز أحد مشـتقات رذاذ مخدر قـوي (الفنتانيـل)، طورته مخابر الـ (اف اس بي)، وقـد تسـبب إطلاقـه بإرباك للخاطفـين والرهائن، واتصلـت آنا أدريانوفـا، الرهينة التـي قابلتهـا بوليتكوفسـكايا، هاتفياً بمحطـة إذاعة صدى موسـكو وقالت إن الإرهابيـين بدا عليهم الـتردد وليسـوا مسـتعدين لإعدامنـا، وقالت بعد سـماع دوي إطلاق النار: «هل تسـمعين؟ سـنذهب جميعـاً إلى الجحيـم»، لكـن لم يذهبـوا إلى الجحيم لسـبب مجهول. تسـبب الغـاز بالنوم لمعظـم الرهائن، في حـين خاضـت قـوات الكوماندوس معـارك مع الإرهابيـين الذين لم يكونـوا في القاعة الرئيسـة، أو لم يتأثـروا كـما حـدث لغيرهم بذلـك الغاز. واسـتمر القتال أكثـر من سـاعة قبل أن يُحـشر باراييف في ركـن مـن الطابق الثـاني ليهبط خلف الشرفـة، ثم قتل الواحـد والأربعون خاطفاً جميعهـم، ومعظمهم برصـاص في الرأس.

ويبـدو أن الإنقـاذ كان سـيبدو نـصراً مـؤزراً؛ إلا أن الذيـن خططوا ونفـذوا الاقتحـام لم يولوا أي اهتـمام لـما يمكـن أن يسـببه الغـاز مـن تأثـير في الرهائـن الضعفـاء، ومـن ثم تحـول الاقتحـام الناجح إلى كارثـة. بـدأ إخـراج أولى الضحايـا الفاقديـن للوعـي في السـاعة السـابعة صباحـاً، حيـث وضعوا في صفـوف عـلى الـدرج الأمامـي للمـسرح، وتوالـت الأعـداد أكثـر فأكثـر، وتزاحمت فـرق الإنقاذ، الذيـن كانـوا مسـتعدين لعلاج الجـروح الناتجة عن الرصـاص أو شـظايا القنابل، لا النـاس المختنقين بألسـنتهم المنتفخـة. وعـلى الرغـم مـن أن السـلطات أعـدت التريـاق لمواجهـة الآثـار المترتبـة عـلى الغـاز، فإنـه لم يكـن متوافـراً مـا يكفي مـن الجرعـات، ولم يكن المسـعفون عـلى السـاحة، ولا الأطباء في المستشـفيات، يعرفـون كيفيـة التعامـل معـه. في النهايـة تـوفي ١٣٠ رهينـة في أثنـاء الحصار، خمسـة منهـم فقـط تـوفي بطلق نـاري؛ اثنان فقـط منهم من الرهائـن داخل المـسرح، والثلاثة الآخـرون كانوا المـرأة التـي اقتحمت المـسرح في اليـوم الأول، ورجلـين آخرين قتلـوا بالرصاص حين كانـوا يقتربون أو يدخلـون المبنـى في أثنـاء الحصـار. وقـد وصـف الطبيـب الـذي شـارك في الإنقـاذ حالـة الارتباك والفـوضى قائـلاً: «لم تكـن مؤامـرة لعينـة، بل مجـرد فوضى سـوفييتية».“

ا.هـــ من كتاب القيصر الجديد لستيفن لي مايرز

لقـد ضرب شـامل باسـييف بدمـاء الاستشـهاديين المخطط الخبيث الـذي كان يختمر في موسـكو، ونقـل رسـالة إلى بوتين من خـلال الهجوم الـذي اخترق الأطـواق الأمنية ليصل إلى جـوار الكرملين، أن أي حـلٍ للقضيـة الشيشـانية لا يمكـن أن يمر إلا عـبر المجاهدين الذيـن وضعوا ثقتهـم في قيادتي، وقـد ظهـر ذلـك جلياً في تصريح باسـاييف الـذي تبنى فيـه العمليـة:" أردت أن أقدم للـروس معاينة مبـاشرة للمفاتـن التي شـن الكرملين من أجلهـا الحرب".

أصبـح بوتـين مجـبراً عـلى التخلي عـن التفاوض مـع أصلان مسـخادوف عـلى الرغم مـن إدانته – أي مسـخادوف – الشـديدة لعمليـة موسـكو، إلا أن أي دخـول في أي نـوع مـن التفـاوض عقب هذه العمليـة المدويـة كان يعنـي انتحاراً سياسـياً للزعيـم الصاعد...

كان بوتـين أمـام خيـارٍ يضغط صقـور الجيش والأجهـزة الأمنية لتنفيذه، وهو شـن حملة عسـكرية انتقاميـة واسـعة في الداخل الشيشـاني تسـتهدف قواعـد المجاهدين والحاضنـة الشـعبية الداعمة لردع قيـادة شـامل باسـاييف عـن تنفيـذ أي هجـوم مماثـل في الداخل الـروسي، ولخفـض وتـيرة العمليات العسـكرية في الداخـل الشيشـاني، إلا أن بوتـين كان قـد أدرك أن الخيـار العسـكري البحـت قد أثبت فشـله مـراراً وتكـراراً، وأن إخفاقـاً جديداً قـد يدفع بمسـتقبله السـياسي إلى الهاوية.

وبدلا من ذلك قرر تحويل مسار الصراع والاتجاه إلى «شيشنة» الحرب...

لقـد قـرر وضـع جـل بيضـه في سـلة المـشروع القاديـروفي الـذي كان في طـور البنـاء البطـيء، وذلـك بتسريـع بنـاء القـوات العميلـة في جـروزني، ومدهـا بكافـة أسـباب القـوة العسـكرية والمالية والاسـتخباراتية، كـي تتحمـل العـبء الأكـبر للقتـال في الداخـل الشيشـاني، وتبـدأ في شـق صـف «التمـرد» مـن خـلال الاخـتراق الأمنـي للتيـار «المعتدل» بقيـادة مسـخادوف وجذب عنـاصره تحت إغـراءات وترهيـب السـلطة المحليـة الجديـدة.

لذلـك أصـدر بوتـين مرسـوماً رئاسـياً في نهايـة العـام ٢٠٠٢م يدعـو لإجـراء اسـتفتاء على وضع دسـتور جديـد للدولـة الشيشـانية، وإجـراء انتخابـات سياسـية وبرلمانيـة في الجمهوريـة الواقعة تحت تـصرف موسـكو؛ وبهـذه الخطـوة يكـون بوتـين قـد بـدأ بإسـباغ الشرعيـة عـلى قيـادة قاديـروف في جـروزني مـن خـلال العمليـة الانتخابية المتحكم بهـا والتي كان متوقعـاً أن تنتهي خلال عـام، ليصبح

النظـام السـياسي في جـروزني «كامـل الأهليـة» بنهاية العـام 2003م.

وعـلى الرغـم من تشـكيك بعض القيادات الروسـية في جـدوى هذه الاسـتراتيجية في دولـة هُجّر نصـف سـكانها، ويـزداد «التمـرد» فيهـا تصاعداً يومـاً بعد يـوم، مائلاً كلما مـر الزمن عليـه إلى الجناح «الراديـكالي»؛ إلا أن بوتـين ودائرتـه المحيطـة كانـوا متيقنـين أن سـلاح الخيانـة هـو السـلاح الوحيد القـادر على إخمـاد ثـورة المسـلمين المتصاعدة....

لقـد حقـق المجاهـدون الشيشـان نجاحـاً مبهراً خـلال السـنوات الثـلاث الأولى للحـرب داخلياً وخارجيـاً، إلا أن بدايـة تمـدد المـشروع القاديـروفي شـكّلت نقطـة التحـول الأهم في الحـرب، وذلك راجـعٌ إلى الخلـل البنيـوي في اسـتراتيجية المجاهديـن الموضوعـة قبـل بدايـة المعركـة، والتـي أغفلت وضـع خطـة محكمـة للتعامـل مـع مشـاريع الخيانـة المحتملـة والتـي كانـت بوادرهـا تلـوح بوضوح قبـل انطـلاق الـشرارة الأولى للمعركـة؛ وفي حـين حـاول المجاهـدون مـراراً اسـتهداف قاديروف في عمليـات لم يُكتـب لهـا النجـاح، إلا أن المقاربـة الكلية للتعامـل مع المشروع الخيـاني كانت غائبـة تماماً وهـو مـا دفـع المسـلمون ثمنـه غالياً بعـد حين.

مـع حلـول العام ٢٠٠٣م، وتماشـياً مع سياسـة «الشيشـنة» التي قـرر الكرملين من خلالهـا مقاربة الـصراع الشيشـاني، أمـر فلاديمير بوتـين بنقل قيـادة العمليـات من جهاز الأمـن الفيـدرالي (اف اس بي)، إلى وزارة الشـؤون الداخليـة الروسـية، وبالتـالي التعامل مـع «التمرد» باعتباره نشـاط «إجرامي» محـلي يتم العمـل للقضاء عليـه مع السـلطات المحليـة المتصاعد نفوذهـا في جروزني.

لقـد اعتمـد قاديـروف بعـد أن وضع بوتـين ثقتـه الكاملـة في مشروعه، على السـيطرة عـلى أموال إعـادة الإعـمار لتوجيههـا نحـو تجنيد مليشـيا ضخمة مـن المرتزقـة بقيادة ابنـه رمضان يسـتقطب إليها مقاتـلي التيـار القومي «المعتـدل» الذين بنى مع كثيرٍ من شـبكاتهم علاقات واسـعة إبـان توليه منصب الإفتـاء خـلال الحـرب الأولى، وفي الفـترة بـين الحربين حيـث كان يُعد من رمـوز التيار.

لقـد كانـت المعادلـة الروسـية قائمـة عـلى مبدأ «العفـو دون اشـتراط نزع السـلاح»، حيـث ينضم «المتمـردون السـابقون» إلى قـوات «حـرس قاديـروف» بـدلاً مـن الاستسـلام المهـين، بـما يضمن لهم أمنهـم الشـخصي، وكذلـك الاسـتفادة مـن كعكـة النفـوذ في النظـام الآخـذ بالتشـكل في جـروزني،

بالإضافة لتوفير دخلٍ ثابت في بلادٍ أنهكتها الحرب لعقدٍ من الزمان.

وقد نجحت تلك المعادلة في إحداث أثرين متوازيين، الأول يتعلق بإضعاف جبهة «التمرد» الشيشانية من خلال تحييد عدد كبير من العناصر المقاتلة، والثاني الاستفادة من تلك العناصر في بناء مليشيات قاديروف الخاصة التي تخوض حربها القذرة ضد المجاهدين المقاتلين من الجبال.

وفي شهر مارس من نفس العام أُجري الاستفتاء على دستورٍ جديد للجمهورية الشيشانية يضعها بشكلٍ رسمي في إطار الاتحاد الروسي، بعد أن تأكد الكرملين من إخراج الاستفتاء بشكلٍ يحقق الغرض منه في التأكيد على كون الشيشان جزءاً لا يتجزأ من الدولة الروسية.

ومع تصاعد نفوذ قاديروف، حاول المجاهدون خلال احتفاله بالمولد النبوي في شهر مايو اغتياله من خلال عملية استشهادية مزدوجة نفذتها مجاهدتان شيشانيتان أسفرت عن ١٥ قتيلاً بينهم ٤ من الحراس الشخصيين لحاكم جروزني، إلا أنه نجا من جديد من القتل.

وقد خطط الكرملين لعملية انتخاب قاديروف لرئاسة جمهورية الشيشان بإحكام، فعمل على إبعاد كل المنافسين المحتملين على مقعد الرئاسة من خلال طرق عدة؛ فأصلان بيك أصلاخانوف عُرض عليه منصب مستشار الرئيس بوتين وهو العرض الذي لم يقدر على رفضه، فيما أُبعد مالك سيدولاييف من خلال ادعاء القضاء لوجود أخطاء قانونية في عملية ترشيحه، واستمر إفساح الطريق لقاديروف بإقصاء كل من تسول له نفسه محاولة منازعته الشرعية.

لقد أراد بوتين لمشروعه الجديد الحصول على شرعية ساحقة وإن كانت ظاهرية تمكنه من أداء المهام الموكلة إليه على الأرض، والتي عجز عنها الجيش الروسي، وهو ما تم بانتخاب قاديروف في شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٣م بنسبة ٨٢,٥٥٪؛ وفي مقابل ذلك منح الرئيس الروسي لأحمد قاديروف هامش استقلالية كبير نسبياً مقارنة بنظرائه من رؤساء الجمهوريات «الإسلامية» داخل الاتحاد الروسي لفرض سيطرته على المجتمع المحلي في الشيشان، حتى أن قاديروف قد اصطدم ببعض جنرالات الجيش الروسي الذين توجسوا من صعوده السريع وبناء نفوذه الخاص، غير أن الكرملين أصدر أوامره لصالح المفتي السابق لـ«المتمردين».

إن منحنى الجهاد داخل الشيشان ارتبط بعلاقةٍ عكسية مع مشروع قاديروف، فكلما تصاعد نظام قاديروف في جروزني وتمددت قوة مليشياته حديثة النشأة، كلما تراجعت وتيرة العمليات العسكرية للمجاهدين داخل حدود الجمهورية الصغيرة، ليشهد العام ٢٠٠٣م الانكسار الأول لوتيرة العمليات العسكرية في الداخل الشيشاني.

إلا أن وتيرة العمليات في الداخل الروسي ظلت على منحناها المتصاعد خلال العام ٢٠٠٣م، حتى صارت التفجيرات والعمليات الاستشهادية حدثاً رئيسياً في الروتين اليومي للمواطن الروسي، بل كانت العمليات «الإرهابية» التي ينفذها «الانفصاليون» الشيشان هي السمة الأبرز لذلك العام، حيث تُعلّق الباحثة السياسية الروسية ليليا شفيتسوفا على هذه المنهجية المستدامة للعمليات قائلة:

"ماذا يمكننا أن نقول عن العام ٢٠٠٣؟ بالنسبة لي شخصياً، أذكره على أنه عام الاعتياد على الشعور الشخصي بالعرضة للهجوم في كل الأوقات. وأنا أشير في ذلك إلى كل الأعمال الإرهابية التي أصبحت عنصراً دائماً في المشهد السياسي الروسي وفي حياة المواطنين العاديين. ففي شباط، انفجرت قنبلة في مترو موسكو راح ضحيتها ٣٩ قتيلاً ومئات الجرحى. وفي أيار، انفجرت قنبلة في مبنى البرلمان في غروزني راح ضحيتها ٥٤ قتيلاً و٣٠٠ جريح. وفي تموز، انفجرت قنبلة في مطار توشينو في موسكو في حفلة موسيقية راح ضحيتها ١٥ قتيلاً و٤٠ جريحاً. في تموز أيضاً، انفجرت قنبلة في داغستان أودت بحياة ٣ قتلى و٤٠ جريحاً. وفي أيلول، انفجرت قنبلتان في قطار داخلي يصل بين مدينتي كيسلوفودسك ومينيرالني فودي راح ضحيتها ٥ قتلى و٣٣ جريحاً. وفي كانون الأول، انفجرت قنبلة في قطار داخلي في مدينة إيسينتوكي أودت بحياة ٤٢ قتيلاً وأكثر من ١٠٠ جريح. في كانون الأول أيضاً، انفجرت قنبلة قرب الفندق الوطني في موسكو راح ضحيتها ٦ قتلى. كل هذا يعني بأن المواطنين الروس العاديين لم يكونوا يشعرون بالأمان في محطات المترو، أو القطارات الداخلية، أو الملاعب، أو الشوارع.»

ا.هـ من كتاب «روسيا بوتين» لذات الباحثة.

وفي العـام ٢٠٠٤ م اتجـه منحنـى العمليـات الميدانية في الداخل الشيشـاني إلى مزيـدٍ من التراجع، حيـث اسـتنزفت السـنوات الطويلـة من الحـرب المدمرة قـدرات المجاهديـن، وأدى تجفيـف كثيرٍ من منابـع الحصـول عـلى الدعم العسـكري والمـادي إلى تراجع القـدرات اللوجسـتية للحركـة المجاهدة، بالإضافـة إلى زيـادة كفـاءة القـوات الروسـية اعتـماداً عـلى مـا اكتسـبته من خـبرة في سـنوات القتال، خاصـة وأن العمليـات العسـكرية النوعيـة باتـت تعتمد بشـكلٍ كبـير على القـوات الخاصة الروسـية (سبيستناز)؛وبشـكلٍ أسـاسي أدى التوحـش المطـرد لسـلطة نظـام قاديـروف ومليشـياته إلى الحد من قـدرة المجاهديـن عـلى الحركـة والمنـاورة، وتخفيض معـدل دعـم الحاضنة الشـعبية التي كانـت تمدهم بأسـباب البقـاء خوفاً مـن بطـش وتعذيب وتنكيـل «حـرس قاديروف».

إن العمليـات العسـكرية النوعيـة والواسـعة في الداخـل الشيشـاني أصبحـت هـي الاسـتثناء لا القاعـدة كـما كانـت في الأعـوام السـالفة، إلا أن المجاهدين وبعد فشـلهم في إجهاض مـشروع الخيانة في جـروزني، اتجهـوا إلى سرعـة تفعيـل مـشروع تثويـر الشـعوب المسـلمة في شـمال القوقـاز لضمهـا إلى صفـوف المعركـة لمواجهـة الاسـتراتيجية الروسـية الهادفـة لحـصر الـصراع في جمهوريـة الشيشـان باعتبارهـا «بـؤرة التمـرد المحـاصرة»، باسـتراتيجية تحويل الشيشـان إلى «عـين العاصفـة» التي تجتاح شـمال القوقـاز بأكملـه، بحيـث لا تتقيـد نتائـج المعركـة بالظـروف السياسـية والأمنيـة في الداخـل الشيشاني.

وفي التاسـع مـن مايـو وأثنـاء احتفالـه بعيـد النـصر السـوفييتي في الحـرب العالميـة الثانيـة في أحد الملاعـب، انفجـرت قنبلـة كانت موضوعـة تحت أحد المقاعـد، أودت بحيـاة أحمد قاديـروف بعد ١٧ محاولـة فاشـلة نفذهـا المجاهدون للنيـل منه.

لقـد ضُرب مـشروع الكرملـين ضربة عنيفة، وهـذا ما ظهر من خـلال المقابلة التي تـم ترتيبها على عجـل بـين رمضـان قاديروف قائد مليشـيات أبيـه، والرئيـس الـروسي فلاديمير بوتـين في الكرملين، حيـث ظهـر رمضان بملابس رياضية مهلهلة وكأنه لم يسـتطع أن يسـتبدل ملابسـه لسرعة الاسـتدعاء من موسكو.

إن القلـق والشـحوب الـذي ظهـر عـلى وجـه بوتـين أثنـاء المقابلـة عَكَـس حجـم الصفعـة التـي

تلقتها كرامة الدولة الروسية باغتيال حاكمها في الشيشان إبان احتفاله بالنصر السوفيتي على النظام النازي، والتي تهدد استمرار المشروع القاديروفي الذي حقق تقدماً لم يكن يتوقعه الكثيرون في الطريق إلى إخماد «التمرد» الشيشاني.

ووقع اختيار موسكو على وزير الداخلية علو ألخانوف لخلافة أحمد قاديروف في مرحلةٍ انتقالية ريثما يبلغ أمير الحرب الأقوى في الشيشان رمضان قاديروف سن الثلاثين –وهو السن القانوني الأدنى لتولي الرئاسة وفقاً للدستور الموضوع سلفاً– ليرث عرش أبيه المضطرب.

وبالفعل تم إجراء الانتخابات في شهر أغسطس والتي انتهت بحصول ألخانوف على نسبة ٤٧٪ من أصوات الناخبين «المفترضين».

لقد كان من اليسير على بوتين الأمر بتعديلٍ عاجلٍ للدستور الشيشاني المقر حديثاً، يسمح لأمير الحرب الشاب بتولي سلطة أبيه مباشرةً دون الحاجة لفترةٍ انتقالية؛ إلا أن بوتين رفض القيام بتلك الخطوة التي نصحه بها قطاعات من دائرة الحكم في موسكو لأنه أراد إسباغ مزيدٍ من الشرعية على نظام جروزني، ببيان أن الدستور الموضوع لا يمكن المساس به لمصلحة أشخاص بعينهم، وأما قاديروف فيمكنه تسلم زمام المبادرة بحكم الأمر الواقع حتى يحين تنصيبه في موقع الرئاسة بشكلٍ رسمي.

ولم يترك المجاهدون هذا المشهد «الانتخابي» يمر دون التوقيع عليه بدمائهم..

فقد شن مئات المجاهدين هجوماً واسعاً استهدف المراكز الأمنية في جروزني قبل وقتٍ قصير من بدء عملية الاقتراع «المزعومة»، واحتلوا أغلب مناطق العاصمة في عدة ساعات، في هجومٍ مشابه للهجوم المظفر على ذات المدينة قبل ثماني سنوات في نهاية الحرب الثانية؛ وأسفر الهجوم عن مقتل العشرات من القوات الأمنية الروسية والمليشيات القاديروفية وفقاً للإحصائيات الرسمية، قبل أن ينسحب المجاهدون إلى قواعدهم.

فعلى الرغم من حالة التراجع والضعف العسكري النسبي التي أصابت المجاهدين في هذه المرحلة على الصعيد الداخلي، إلا أنهم أبوا إلا إثبات تأثيرهم على المشهد السياسي؛ وإن كان هذا

التأثير آخذاً في التراجع بسبب العوامل البنيوية التي سبق وأن ذكرناها.

أما على صعيد استراتيجية شامل باساييف الهادفة إلى «قوقزة» الصراع مع الاحتلال الروسي، فقد حقق ذلك المسار تقدماً هائلاً تمثّل في سلسلةٍ متتابعةٍ من العمليات النوعية التي ضربت العمق الروسي والعمق النصراني في القوقاز.

ففي السادس من فبراير استهدف تفجير محطةً لمترو الأنفاق في موسكو، ما أسفر عن مصرع ٣٩ شخصاً، وإصابة ١٠٠ آخرين وفقاً للإحصائيات الرسمية.

وفي ليلة الحادي والعشرين من يونيو (ذكرى الغزو النازي للاتحاد السوفييتي) وجه شامل باسابيف صفعةً جديدة للكرامة الروسية، حينما اقتحم مرتدياً زي القوات الروسية على رأس وحدة كبيرةٍ من المجاهدين مدينة نازران الإنجوشية وعدة مدن أخرى داخل ذات الجمهورية المحتلة والمشتركة مع الشيشان في حدودٍ طويلة، فأوقعوا القوات الأمنية في كمائن محكمة أسفرت عن مصرع ٨٠ منهم قبل أن ينسحبوا إلى الغابات نحو القواعد الحصينة، بينما عاد من اشترك من أهل البلاد في الهجوم إلى حياته الطبيعية.

لقد أسفرت العملية عن إقالة القادة العسكريين الروس المسؤولين عن ملف الشيشان بمن فيهم رئيس هيئة الأركان الجنرال أناتولي كفاشنين، نظراً لإدراك بوتين لحجم الأثر السياسي للاستراتيجية المتبعة من قبل باسابيف على الأمن الروسي في شمال القوقاز.

وفي الرابع والعشرين من أغسطس، تم تفجير طائرتين روسيتين كانتا تقومان برحلة طيران داخلية بشكلٍ متزامن ما أسفر عن مصرع 90 روسياً.

وبهذا انتقلت المعركة إلى مستوى آخر من العمليات التي تؤثر على المكانة الروسية المتراجعة أساساً على المستوى الدولي، حيث اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية قراراً بمرافقة الطيران الحربي الأمريكي لطائرات الركاب الروسية عند دخولها المجال الجوي الأمريكي خشيةً من وقوع تفجيرات مماثلة؛ ليتلقى بوتين من جديد صفعةً تمس هيبة الدولة الروسية العاكف على ترميم ما بقي منها.

وفي الأول من سبتمبر وقع الهجوم الذي شكّل درة عقد استراتيجية «القوقزة»...

" الأول من سبتمبر/ أيلول هو –بحكم التقاليد– اليوم الأول من المدرسة في جميع أنحاء روسيا، ومناسبة احتفالية تدعى يوم المعرفة، وفيه ينضم الآباء والأجداد إلى أبنائهم لدى تجمعهم في مدارسهم، والجميع يرتدون أفضل ملابسهم، ويحملون الورد أو غيرها من الهدايا للمعلمين الجدد. وفي الأيام الأخيرة من صيف عام ٢٠٠٤م، انتشرت الاحتفالات مرة أخرى في مختلف أنحاء البلاد، وكذلك في المدرسة رقم ١ في بيسلان، وهي مدينة صغيرة في أوسيتيا الشمالية، وهي منطقة يغلب فيها الأرثوذكس في وسط القفقاز، وكان أكثر من ألف ومئتي شخص قد تجمعوا في ساحة المدرسة في التاسعة صباحاً عندما ظهرت شاحنة عسكرية، وقفز رجال يرتدون الزي الرسمي من تحت قماش القنب الذي يغطي البضائع، فأطلقوا النيران من رشاشاتهم في الهواء وصرخوا: «الله أكبر»، ثم حاصروا الجميع أول الأمر في باحة المدرسة، ومن ثم اقتادوهم إلى صالة للألعاب الرياضية في المدرسة، وعلقوا بالأسلاك القنابل فوق رهائنهم. من بين المموهين امرأتان، الزميلتان المتشاركتان في غرفة في جروزني، اللتان يعتقد أن لهما دوراً في هجمات سابقة على الطائرات والمترو في موسكو، مريم تابوروفا وروزا ناغايفا. كانتا الآن جزءاً من هجوم إرهابي همجي مثل حصار نورد– أوست قبل ما يقرب من عامين.

وفي بيسلان كانت السلطات المحلية مصعوقة، وذكر قادة الشرطة في البداية صعوبة الوصول إلى الإرهابيين داخل المدرسة، على الرغم من أن واحداً منهم أجاب على الهاتف في المدرسة وقال لنيكولاي خاليب، من صحيفة نيويورك تايمز، إن المقاتلين هم وحدة تحت قيادة شامل باساييف، المطلوب الأول في روسيا، «امسح مخاط مناخيرك»، قال لخاليب. بعد حين ظهرت امرأة مرعبة من المدرسة مع مذكرة تطالب بمفاوضات مع قادة أوسيتيا الشمالية وأنغوشيا المجاورة، والطبيب الذي توسط خلال حصار نورد– أوست، ليونيد روشال. حذرت المذكرة أيضاً من أن الخاطفين سيطلقون النار على خمسين من الرهائن إذا قُتل واحدٌ من أي من مقاتليها. وفي المساء رُحل الرجال إلى الفصول الدراسية في الطابق الثاني، وبدأت عملية تنفيذ قتلهم واحداً تلو الآخر، والقذف بأجسادهم من النافذة.

في صباح يوم بدء الحصار، استيقظ بوتين ومارس السباحة في البحر، إلا أن الأزمة التي تتكشف جعلت البقاء في سوتشي مستحيلاً، فطار إلى موسكو، حيث وصفه أحد كبار مساعديه الذي التقى به بأنه كان في «اضطراب شديد»، متذمراً من الانهيار التام في الأمن الذي سمح لمجموعة من المقاتلين المدججين بالسلاح بالاستيلاء على مدرسة بكاملها.

بقي بوتين في الكرملين خلال الأيام التالية، ولجأ دورياً إلى مصلى في مكتب كان معروفاً جيداً للصلاة، ليصلي، ولكنه أيضاً كان يشكو من أنه لم يكن لديه الوقت لممارسة رياضته اليومية الروتينية، وظهر علانية على الجمهور بإيجاز، في ٢ سبتمبر/ أيلول، خلال حديث له مع الملك عبد الله الثاني ملك الأردن، وتعهد خلالها بحماية حياة الرهائن قبل كل شيء. تحدث كما لو كان قد أصدر أوامر لـ (اف اس بي) بإيفاد مجموعة من عشرة أشخاص (لأغراض خاصة) لبيسلان، التي تضم ضباطاً من النخبة المدربة للأزمات غير العادية.

سعى بوتين إلى إيصال الشعور بأن السلطة هادئة، ولكن بحكم الإعادة فقد اضطر المسؤولون الروس إلى الكذب فيما يتعلق بالمأساة، وذلك فاقم الشعور بالذعر والفوضى. ذكرت السلطات في بيسلان وفي موسكو أنه لم يكن هناك سوى ٣٥٤ رهينة، مع أن الجميع في البلدة يعرفون أنه كان هناك أكثر من ذلك. وقد لجأ بعض من هم خارج المدرسة بغضب إلى حمل لافتات في ضوء كاميرات التلفاز قائلين إن هناك ما لا يقل عن ٨٠٠ رهينة، وتوسلوا إلى بوتين للتدخل سلمياً، علماً أنهم يعرفون أن ردة فعله لن تكون كذلك غريزياً مع إعادة انتخابه. حتى الإرهابيون في الداخل استشاطوا غضباً عندما شاهدوا التلفاز يردد الكذبة عن عدد الرهائن، وهددوا بإطلاق النار على الرهائن حتى يتبقى منهم ٣٥٤ فقط. وأرّق بعض المسؤولين ذلك الكذب الذي اضطروا إلى تكراره.

بدت السلطات كلها –الشرطة، ووزارة الداخلية، وجهاز الأمن الفيدرالي، وكل المدعومين من بوتين خلال ولايته الأولى- مشلولة؛ فهم قلقون كثيراً على حماية النظام الذي أوجده بوتين بقدر قلقهم على حماية الأطفال والآباء المحاصرين داخل المدرسة.

تمكنت آنا بوليتكوفسكايا، التي تفاوضت مع الإرهابيين في نورد – أوست، من الوصول إلى

زعماء المعارضة الشيشانية في المنفى للتوسط مرة أخرى، ولكن عندما وصلت إلى مطار قرب بيسلان بما يكفي لقطع المسافة بالسيارة، قالت إنها مرضت في أثناء رحلة الطيران، وكانت مقتنعة بأن الشاي الذي أعطي لها كان مسموماً. كذلك اعتقل أندريه بابتسكي، المراسل الذي أثار القبض عليه خلال السنوات الأولى من الحرب فضيحة مدوية، في مطار موسكو؛ ذلك أن السلطات التي أخفقت إخفاقاً ذريعاً بحماية المدرسة في بيسلان قررت حماية المدينة من الصحفيين غير المرغوب فيهم، وبدا أن المسؤولين في بيسلان غير واثقين، ومترددون، والحصار يدخل يومه الثاني.

تفاقم التوتر بسبب الانفجارات المتقطعة وإطلاق النار التي لم يكن سببها واضحاً لمن هم في الخارج، وكان بوتين قد جعل من نفسه السلطة العليا في روسيا، إلا أن (السلطة الرأسية) خلقت شللاً في أوقات الأزمات؛ فلا أحد يخاطر بأخذ مبادرة قد تثير الاستنكار. وتعهد بوتين بعدم التفاوض مع الإرهابيين، ولكنه لأول مرة يسمح لمساعديه ببحث إمكانية التوصل إلى نهاية للحصار، حتى مع إبقاء الكرملين له بعيداً عن أي جهد. وأصدر تعليماته لحاكم المنطقة ، ألكسندر جازوخوف، لإجراء اتصالات مع الممثل الرئيس لأصلان مسخادوف في المنفى، أحمد زكاييف، وقد فعل ذلك من خلال رسلان أوشيف، الرئيس السابق لإنغوشيا المجاورة، وبطل الحرب السوفييتية في أفغانستان، والمتعاطف مع نضال الشيشان من أجل الاستقلال، لكنه أيضاً اراد أن يكون على يقين من الحفاظ على منطقته بمنأى عن القتال.

وصل أوشيف إلى بيسلان في اليوم الثاني من الحصار، وتولى الاتصال مع الإرهابيين، وخلال خمس عشرة دقيقة، قيل له إنه يمكن أن يدخل المدرسة، وكان أول مسؤول يسمح له بالدخول، وما رآه في الداخل كان مدعاة لليأس؛ فالإرهابيون لم يقدموا للرهائن أي طعام أو ماء، وأعطى قائد المجموعة، الذي يطلق على نفسه اسم العقيد، أوشيف قائمة مكتوبة بخط اليد من المطالب: أن تنسحب القوات الروسية من الشيشان وتمنحها الاستقلال؛ وأن تنضم الشيشان الجديدة لروسيا في رابطة الدول المستقلة؛ وأن تحافظ على الروبل عملةً لها؛ والعمل مع القوات الروسية لاستعادة النظام في المنطقة. وقد وجهت هذه المذكرة، التي كُتبت على ورقة دفتر ملاحظات، إلى «فخامة رئيس الاتحاد الروسي»، وكتب في ذيلها اسم «عبد الله، شامل باساييف». إن أياً من المطالب لن

يكـون مقبـولاً لـدى بوتـين، لكن أوشـيف وعـد بنقلها إذا أفـرج الإرهابيون عـن النسـاء والأطفال والرضـع، وأخـبره أحد الإرهابيـين أن ألفاً وعشريـن من الرهائن كانـوا داخل المدرسـة المكتظة، وقد حـاول أوشـيف إقناعهم بالسـماح لسـت وعشريـن مـن الرهائن بالمغـادرة معـه؛ إحدى عـشرة امرأة وخمسـة عشر مـن الرضع.

عندمـا عاد أوشـيف إلى مركز القيادة، اتصـل بزكاييف في لندن، وأخبره زكاييف أنه ومسـخادوف على اسـتعداد للمسـاعدة، ولكن لابد من أن يتمكن مسـخادوف من السـفر إلى بيسـلان للتحدث إلى الإرهابيـين، بأن تمنح روسـيا له ضمانـات مرور آمن.

عـرف أوشـيف أن هنـاك خطـة وضعـت لمداهمـة المدرسـة، وفي الواقع فـإن اثنتين مـن الوحدات الخاصـة التـي أمـر بوتين بإرسـالها إلى بيسـلان كانوا يتدربـون حقاً على الهجـوم في مبنى لمدرسـة مماثلة ليـس بعيـداً، ومـن ثـم فقد أعـرب عن أملـه في أن يتمكـن من تحقيـق الإفراج عـن مزيد مـن الرهائن في غضـون ذلـك، ولكـن في صباح اليوم الثالث، ٣ سـبتمبر/ أيلـول، توصل إلى اتفـاق مع الإرهابيين لإزالـة جثـث الرجـال الذين أعدموا وقـذف بهم من نافـذة الغرفة الصفيـة، وكانت جثثهـم حينها قد بـدأت بالتحلل.

بـدأ فريـق مؤلف مـن أربعة رجال من وزارة حالات الطوارئ بسـحب الجثث إلى سـيارة إسـعاف في السـاعة الواحـدة، ومـا إن بـدأوا بحمـل الجثـث حتى هـز انفجار مـدوٍ صالـة الألعـاب الرياضية في المدرسـة، وبعـد اثنتـين وعشريـن ثانيـة حـدث الانفجـار الثـاني. قذفـت التفجـيرات السـقف والعـوارض الخشـبية خـارج المدرسـة، ثـم دوى انفجار آخـر قريباً من النوافـذ، أحدث ثقبـاً في جدار صالـة الألعـاب الرياضيـة، فقُتل العشرات في الاشـتباك فوراً، وبـدأ الناجون –وهـم في حالة ذهول– بالهـرب مـن المدرسـة المحطمـة، في حـين كان الجنـود في الخـارج والإرهابيـون في الداخـل، عـلى حدٍ سـواء، غـير متأكديـن مما حـدث، وبـدأوا بتبادل إطـلاق نار شرس اسـتمر عشر سـاعات. اشـتعلت النـيران بالسـقف المنهـار، واشـتعلت العـوارض الخشـبية التي سـقطت بنيرانهـا على أولئـك الذين ما زالـوا في الداخل.

وفـق نظريـة المؤامرة التـي ظهرت في وقت لاحق فـإن الروس هم مـن بدأوا المعركة قبـل العصابة

في المدرسـة، ولكـن أيـاً مـن أولئـك الذيـن في الخـارج مـا كان يبدو مسـتعداً لشـن هجوم عـلى المبنى عندمـا بـدأ الهجـوم، إذ لم يكـن لديهـم كثـير مـن السـترات الواقية مـن الرصـاص، ولم يقيموا سـياجاً أمنيـاً حـول المبنـى، ولم تكـن هناك سـيارة إسـعاف أو شـاحنات إطفاء النـيران في متنـاول أيديهم. أما رجـال المنطقـة ممكـن كان معهـم بنادق صيد فشـاركوا في القتـال بها، يطلقـون النار جزافـاً، ويهرعون وسـط المعركـة لحمـل الأطفال إلى بـر الأمان.

كان ذلـك الهـرج والمـرج يُبـث حيـاً عـلى شـبكات التلفـاز الـدولي، ولكـن ليس عـلى الشـبكات الروسـية، التـي توقفـت عنـد براجمهـا العاديـة فقـط بانتظار الحصـول عـلى التحديثات القصـيرة التي اسـتمرت تقلـل مـن شـأن المذبحـة كلـما ازدادت سـوءاً. لم يظهـر بوتـين ولا أي مـن كبار المسـؤولين الآخريـن لمعالجـة الأزمة. وفي تلك الأثنـاء اجتمع رئيس الـوزراء فرادكوف والحكومة لمناقشـة خطط الخصخصـة في البـلاد، والرشـقات الناريـة من البنـادق والرشاشـات والانفجـارات تمزق المدرسـة.

وصلـت المعركـة إلى الذروة في تلك الليلة في السـاعة ١١:١٥ صباحاً، عندما أطلقت دبابة روسـية قذيفـة عـلى المدرسـة، وهـو مـا أسـفر عـن مقتـل ثلاثـة مسـلحين كانـوا في الطابـق السـفلي، وكانت شـبكات التلفـزة الروسـية أعلنـت أن الوضـع تحت السـيطرة قبل سـاعات. عنـد انتهـاء المعركة كان الــ ٣٣٤ مـن الرهائـن قد لقـوا حتفهـم، ١٨٦ منهم من الأطفـال، وقُتل عـشرة من القـوات الخاصة الروسـية وهـم يحاولـون تحريـر مـن في الداخـل، وقُتـل ثلاثـون مـن الإرهابيـين، بينهـم اثنتـان مـن النسـاء؛ مريـم تابوروفـا وروزا ناغايفـا، التي كانـت زميلتها قد شـاركت في عمليـة إرهابية من خلال تدمـير طائرتـين، وقُبـض عـلى إرهـابي واحـد أُحيـل في وقـت لاحـق إلى المحكمـة، ولكـن يعتقـد أن آخريـن هربـوا في حالة مـن الفوضى."

ا.هــ من كتاب القيصر الجديد لستيفن لي مايرز

مثّـل هـذا الهجـوم قفـزة نوعيـة في المواجهـة على امتـداد كامـل شـمال القوقاز، فأوسـيتيا الشـمالية تُعـد معقـل النصرانيـة الأرثوذكسـية والقومية الروسـية وسـط بحر من الوجود الإسـلامي في شـمال القوقـاز، ولطالمـا اعتبرهـا الـروس قلعتهـم العصيـة عـلى الاخـتراق والانكسـار في منطقـةٍ تضطرب بالنـزوع إلى التحـرر مـن الاسـتعباد الـروسي الممتـد لمـا يزيـد عن المائة والخمسـين سـنة.

إن تداعيات هذا الهجوم داخل المجتمع الأوسيتي المتمثلة في الاستهداف المتزايد للأقلية المسلمة بداخله، بعد أن شارك عوام النصارى في البلاد القوات الخاصة الروسية الهجوم على المدرسة التي تحصن بها المجاهدون، رسمت صورة مصغرة لما يمكن أن يعم كامل الشمال القوقازي بشكلٍ عكسي، حيث الروس وقواتهم الأمنية قلة في بحر الشعوب المسلمة النائمة على بركانٍ يقارب الانفجار.

وبذلك ختم شامل باساييف سلسلة العمليات الخارجية الناجحة والناجعة ضمن استراتيجية «القوقزة» على امتداد القوقاز والداخل الروسي خلال العام 2004م، لينعكس ذلك على استطلاعات الرأي الذي أشار أحدها إلى أن ٩٣٪ من المشتركين فيه قالوا بأن وقوع هجمات جديدة أمرٌ مرجح، و٦٧٪ كانوا يعتقدون أن القادة الروس لا يمكنهم حماية الشعب الروسي من هذه الهجمات المتوقعة، وفي حين كانت نسبة من قال بأن رد القيادة الروسية على الهجمات أظهر صرامة وعزما هي ٣٦٪، كان ٤٠٪ يرون أن الرد أظهر بأن القادة كانوا غير متأكدين من كيفية محاربة الإرهاب.

وهذه المؤشرات تعكس بوضوح حالة الرهاب التي سيطرت على الرأي العام الروسي، ودفعت بمؤشرات الثقة في القيادة الروسية إلى أدنى مستوياتها، وهو ما أدى بالضرورة إلى الرغبة في الانعزال عن المحيط الخارجي الذي "يصدّر" الأعداء إلى روسيا.

في العام الموالي (٢٠٠٥م)، وبالتحديد في شهر مارس قرر الروس قطع آخر حبال التفاوض من خلال اغتيال أصلان مسخادوف بعد أن غدروا به إثر اتفاقه معهم على لقاءٍ تفاوضي مزعوم، ليقرر بوتين وبشكلٍ نهائي عدم التراجع عن سياسة الشيشنة التي بدأها قبل عامين وحققت تقدماً ملحوظاً فيما يتعلق بالوضع العسكري داخل الشيشان.

فبعد ست سنوات من الحرب الطاحنة لم يستطع فلاديمير بوتين أن يقلد الأمير الروسي ألكسندر بارياتنسكي، الذي استطاع تحقيق نصرٍ حاسم على المقاومة الإسلامية بشمال القوقاز في القرن التاسع عشر حين قال: « كل ما حدث خلال هذه الحرب الكارثية ينبغي أن يطويه النسيان إلى الأبد».

فمع تصاعد نجاح استراتيجية «القوقزة» التي بلغت ذروتها في العام السابق، قرر بوتين الاعتماد على مسار ذي شقين:

١-احتواء «الإرهاب» وتقليص أثره من خلال العمل المكثف على اغتيال الرؤوس المدبرة للعمليات الممتدة على مستوى شمال القوقاز والداخل الروسي، عن طريق التعامل معها كجزء من عملية محاربة الإرهاب على المستوى الدولي والاستعانة بخبرات و«تسهيلات» الاستخبارات الغربية في هذا السياق.

٢-تعزيز هيمنة موسكو غير المباشرة على الوضع في شمال القوقاز من خلال تعزيز قدرة الحكومات المحلية على السيطرة على الأوضاع، وتهدئة الشارع القوقازي من خلال إبعاد بعض الوجوه التي أُحرقت ولم يعد من وراء استخدامها نفع.

ولكن رغم الإجراءات الروسية الهادفة إلى منع انتقال عدوى «الثورات الملونة» في أوكرانيا وجورجيا المناهضة للنفوذ الروسي إلى شمال القوقاز المضطرب، من خلال زيادة إحكام القبضة الأمنية على القطاعات التي يُتوقع منها تحرك؛ كانت الخلايا الإسلامية النائمة والداعمة لاستراتيجية شامل باساييف القوقازية قد وصلت إلى مرحلة تسمح لها بالتحرك ذاتياً دون دعمٍ من الخارج.

ففي أكتوبر عام ٢٠٠٥م، وفي وسط مدينة نالتشيك عاصمة جمهورية كاباردينو – بلقاريا المسلمة الواقعة شمال القوقاز والمتاخمة لأوسيتيا الشمالية، هاجم قرابة المائة والخمسون مسلماً عدداً من مراكز الشرطة ومقار الأجهزة الأمنية في وضح النهار اعتراضاً على السياسات الروسية المستهدفة للوجود الإسلامي، والتي كانت قائمة بالأساس على القبضة الأمنية الوحشية التي طالت فئات واسعة من المجتمع، فقررت الحكومة الروسية سحق الانتفاضة بغير رحمة، ما أسفر عن استشهاد جل المهاجمين، ومصرع ما يقارب ٢٥ جندياً روسياً.

ولا تكمن أهمية هجوم نالتشيك في نتائجه المباشرة التي لم يكن ليُعول عليها في ظل هوة القوة الواسعة، إنما تكمن فرادته في إعطائه مؤشراً أولياً على قدرة المجتمعات المسلمة المحلية في شمال

القوقـاز عـلى تكويـن نواتهم الصلبـة التي تسـتطيع النهوض بأعباء الاسـتقلال بالتكامـل مع إخوانهم مـن باقي الجمهوريات الإسـلامية.

وكـرد فعـل عـلى ذلـك الهجـوم، بـدأت القيـادة الروسـية في بدايـة العـام 2006م باتبـاع سياسـة «امتصـاص الغضـب» في شـمال القوقـاز، من خـلال اسـتبدال الوجوه التـي حظيت بنقمة الأوسـاط الشـعبية مثـل ماجوميدييف في داغسـتان الذي أُحيـل إلى التقاعد ليحل محله موخـو علييف، بالإضافة إلى إجـراء تعديـلات واسـعة في التركيبـة القياديـة للأجهـزة الأمنيـة والقضائيـة في الإقليم تسـتهدف إقصـاء العديـد مـن رمـوز القبضـة الأمنيـة الروسـية في الجمهوريـات الإسـلامية مثـل وزيـر داخلية جمهوريـة كاباردينـو – بلقاريـا، وكذلـك المدعي العـام لجمهورية داغسـتان.

وفي يونيـو مـن عـام ٢٠٠٦م تمكنـت القـوات الروسـية مـن اغتيـال عبـد الحليـم سـعدولاييف (خليفـة أصـلان مسـخادوف) بعـد أن خانـه فرد مـن الدائـرة المقربـة كان على صلـة بالجهـاز الأمني لرمضـان قاديـروف، حيـث أعطاهـم المعلومـات عـن قائـده مقابـل جرعات مـن الهيرويـن وفرها له حاكـم جـروزني، مـا يشـير إلى الارتفـاع المتزايـد لقـدرات رمضـان قاديـروف وجهـازه الأمنـي عـلى اخـتراق شـبكات التيـار القومـي «المعتـدل» وحواضنه الأساسـية.

ومـا لبـث أن قُتـل القائـد الفـذ شـامل باسـاييف في انفجـارٍ مجهـول في قاعدتـه التـي كان يتواجد بهـا في جمهوريـة إنجوشـيا، حيـث ادعـت الاسـتخبارات الروسـية مسـؤوليتها عـن مقتلـه، فيـما قال المجاهـدون أن باسـييف –رحمـه الله– قـد قُتـل نتيجـة انفجـارٍ عرضي.

ونظـراً للأهميـة البالغـة للشـخصيات التاريخيـة الفـذة خاصـةً في حالـة عـدم وجـود مؤسسـات فاعلـة رصينـة يتـم إدارة الـصراع الإسـلامي مـن خلالها كـما هو حالنـا اليـوم، فقد ضرب استشـهاد شـامل باسـاييف العمل الجهـادي عموماً واسـتراتيجية «القوقزة» خصوصاً في مقتـل، حيث تراجعت العمليـات الكـبرى عـلى امتـداد القوقـاز والشـمال الـروسي بشـكلٍ لافت بعـد مقتله في ظـل الضغط الـروسي الأمنـي المتصاعـد، وانكماش مسـاحة الحركـة داخـل الجمهوريـة الشيشـانية إلى أضيق نطاق بالتـوازي مـع زيـادة تجـذر نظام قاديـروف في سـدة الحكـم يوماً بعـد يوم.

وقبل ختام الحديث في هذا المحور أحببت أن أعرج على سمتين هامتين من سمات استراتيجية «الحرب الهجينة» التي اعتمد عليها فلاديمير بوتين خلال الحرب:

أ- على الرغم من النظرة الروسية الفوقية الاستعلائية التي تنظر بها موسكو إلى إقليم شمال القوقاز المسلم بكامله، باعتبار أن الصراع القائم بينهما منذ قرون هو صراع بين الحضارة المسيحية الراقية والإسلام البدائي الهمجي، والتي كثيراً ما تتبدى في الأوصاف التي تستخدمها السلطة لوصف الحركات الجهادية في شمال القوقاز مثل: «البرابرة» ، «قطاع الطرق»، «أعداء الشعب»، «المتعصبون»، «رجال العصابات»؛ إلا أنها لم تمنع فلاديمير بوتين من تملق المجتمع الإسلامي الخاضع للاحتلال الروسي باعتباره جزءاً من الكيان الروسي، وباعتبار الإسلام «التقليدي» الخانع لسلطة موسكو جزءاً من الهوية التاريخية الروسية، وفي هذا السياق يقول بوتين:

"إن المسلمين لديهم كل الحق للشعور بأنهم جزء من الأمة الإسلامية العالمية، وإن روسيا كانت -ولا تزال- حليفاً جيوسياسياً للإسلام، إن السلطة في روسيا سوف تحافظ دائماً على إسلامنا التقليدي».

وهذا التمييز بين الإسلام «التقليدي» والإسلام «الوافد» يهدف إلى استجلاب رضا أو على الأقل سكون القطاعات الشعبية ضعيفة الوعي عن الحركة ضد حكومات الكرملين العميلة في المناطق الإسلامية، باعتبار أن الحريات الدينية الفردية التي لطالما نادى بها المسلمون خلال العهد الشيوعي صارت حقاً مكتسباً لكل فرد في تلك الجمهوريات.

وقد ظهرت جميع تلك التناقضات عندما سأله مراسل لوموند الفرنسية عن استخدام الألغام الأرضية لقتل المدنيين في الشيشان، فأجابه:

"إذا كنت مسيحياً فأنت في خطر، وإذا قررت أن تصبح مسلماً فهذا لن يوفر لك الأمان أيضاً، لأنهم يعتقدون أن الإسلام التقليدي أيضاً معادٍ لأهدافهم، إذا كانت عازماً على أن تصبح راديكالياً إسلامياً كاملاً، ومستعداً للخضوع لعملية الختان، فإنني أدعوك إلى موسكو؛ نحن أمة متعددة أجناسها، ولدينا خبراء في هذا المجال أيضاً، وسأوصي أن تتم العملية بحيث لا شيء ينمو

فيـك مـرةً أخرى"

ب- الاعتـماد عـلى تكتيـك «الهـدن السرية» لتركيـز كامـل الجهد العسـكري على الجبهـات الأكثر اشـتعالاً، ولاسـتخدام هـذه الهـدن غـير المعلنـة مـع القـادة القابلـين للاحتـواء كخطـوةٍ أولى نحـو المفاوضـات التـي تـؤدي لاندماجهـم في المـشروع الـروسي مقابـل امتيـازاتٍ محـددة.

يقول الصحفي سيباستيان سميث في كتابه: «جبال الله... الصراع على الشيشان»:

"السـلام أيضـاً، لـه ثمـن: فقـد أخـبرني ضابـط رفيـع المسـتوى مـن القـوات الشيشـانية المواليـة لروسـيا أن الـروس أبرمـوا اتفاقـاتٍ مع الثـوار لتطبيق هدنـة في مناطق جبليـة معينة. وهكذا تشـتعل المعـارك في أحـد الوديـان، فيـما يكـون الآخـر هادئـاً، بالرغـم من وجـود المتمرديـن فيه"

وهـو ذات التكتيـك الـذي تـم تطبيقه في أرض الشـام حذو القـذة بالقذة، إذ كانت دماء المسـلمين تُـراق، وأعراضهم تُنتهـك، وأراضيهم تُقضم، ويُقـضى على الصادقين منهم؛ بينـما يتعلل أمراء الحرب في الجبهـات الهادئـة بانعـدام القـدرة عـلى خـوض المعركـة عـلى الرغـم مـن تركيـز القـوات النصيرية والرافضيـة عـلى المحـور المحـدد مسـبقاً؛ وهاهم اليوم يشـارفون عـلى الوصـول لنهاية الطريـق الذي بـدأت من أجلـه الهـدن السرية...

ولم تكن نهاية هذا الطريق يوماً سوى الخيانة....



المحور الخامس

الحقبة الرمضانية

عانى المجاهدون الأمرين من الاختراق الأمني الواسع من قبل الاستخبارات الروسية والجهاز الأمني لنظام قاديروف للتيار «القومي» المعتدل الذي كان يقوده أصلان مسخادوف؛ فطبيعة المعركة عسكرياً وجغرافياً وجيوسياسياً والتي تدور في جمهورية لا تتجاوز مساحتها ١٥٠٠٠ كيلومتر مربع حتّمت على المجاهدين التداخل مع قوات أصلان مسخادوف في كثير من الأحيان.

ونظراً للخلل البنيوي في استراتيجية المجاهدين التي دخلوا بها الحرب فيما يتعلق بالتعامل مع التيار الخياني المتوقع انشقاقه عن تيار مسخادوف، لم تكن هناك استراتيجية أمنية محكمة لتقليل المخاطر من هذا الاختلاط إلى أدنى حد، ورفع مستوى الإنذار عند اقتراب الخطر الداهم، ما كلّف المجاهدون دماء خيرة قادة الصف الأول.

فقد تمكن الروس خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٩٩م إلى العام ٢٠٠٦م من قتل الصفوة الأولى من الحركة المجاهدة مهاجرين وأنصاراً؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد المجاهدون من قادة الأنصار سلمان رادوييف قائد هجوم داغستان في الحرب الأولى، وعربي باراييف القائد العسكري المحنك، وشامل باساييف القائد العام الذي أذاق الروس مر العلقم في عقر دارهم المرة بعد المرة؛ ومن قادة المهاجرين ارتقى الجمع الغفير الذي لا يُعد مثل خطّاب، وأبو بكر عقيدة، وأبو حفص الأردني، وأبو الوليد الغامدي، والفقيه المجاهد أبو عمر السيف وغيرهم الكثير.

وقد أدت هذه الضربات على مستوى الرأس إلى إضعاف الحركة المجاهدة مع مرور الوقت،

حيث أن كثرة النزيف من الكوادر في ساحةٍ يصعب فيها تعويض الجندي فضلاً عن الأمير خفّض من القدرة على استدامة الصمود.

وإن كانت الحركة المجاهدة في الشيشان قد أخطأت في ضعف التخطيط المسبق لهذه المعركة الاستخباراتية الطاحنة، إلا أنه يُلتمس لهم بعض العذر من ناحية الممارسة العملية التي تحتم فيها المساحة والظروف الجيوسياسية إجراءات معينة يكون المرء مكرهاً عليها.

إلا أن الحركة المجاهدة في الشام لم تكن تملك ذات الأعذار؛ ففي ساحةٍ مترامية الأطراف مقارنةً بالشيشان، حيث الحدود المفتوحة، والمكامن الآمنة، والأرض المحررة، لم يكن التقصير في باب التعامل مع الفصائل المدعومة استخباراتيا إلا إهمالاً عميقاً في التخطيط، وضعفاً شديداً في الممارسة كلّف الأمة صفوة قادتها الذين ما فتئت تسقي خبراتهم وقدراتهم بدمائها على مدار عقود...

فبعد اغتيال شامل باسايف قائد الجناح الإسلامي، وعبد الحليم سعدولاييف خليفة أصلان مسخادوف على رأس التيار «المعتدل" خلال مدة تقارب الشهر منتصف العام ٢٠٠٦م؛ آلت الإمارة إلى أبي عثمان دوكو عمروف والذي بدأت تجتمع تحت رايته كافة التشكيلات، حيث صارت الغلبة ظاهرة للتيار المجاهد على المشهد، خاصةً بعد الاختراقات الواسعة التي نجح نظام قاديروف الأب والابن في إحداثها في التيار القومي.

وعلى عكس الوضع الميداني، اتجه الوضع السياسي نحو التصعيد بين التيارين المتعارضين؛ فبعد أن أعلن دوكو عمروف اتحاد جميع الجماعات المجاهدة في شمال القوقاز تحت راية إمارة القوقاز الإسلامية في أكتوبر ٢٠٠٧م، ومبايعة كافة الأمراء له على إمارتها؛ اتسعت هوة الخلاف مع التيار «المعتدل» في المنفى بزعامة أحمد زكاييف وزير الثقافة والخارجية في حكومة أصلان مسخادوف وممثله في الخارج.

كانت الحركة المجاهدة قد فقدت غطاءها السياسي العامل من المنفى والذي تمثل في الرئيس الشهيد سليم خان يندربييف، والذي أُغتيل تحت سمع وبصر المخابرات الأمريكية والقطرية في العاصمة الدوحة في شهر فبراير عام ٢٠٠٤م ضمن ترتيبات مكافحة الإرهاب المشتركة بين

واشـنطن وموسكو.

وبالتـالي صـارت المعركـة واضحة صريحـة بين الداخـل المجاهد القابـض على الجمر، الـذي يتلقى ضربـات الـروس الواحـدة تلـو الأخـرى، والمنفـى الخارجـي الراغـب في اسـتجلاب رضـا الـدول الغربيـة، وتحـاشي التنصيـف على قوائـم الإرهـاب المزعومة.

وتزايـد الصـدام تدريجيـاً بـين التيـار القومـي المطالـب بحـصر المعركـة داخـل القطـر الشيشـاني باعتبارهـا قضيـة تحـررٍ وطنـي لجمهوريـةٍ محتلـة مـن قبـل موسـكو، تسـعى إلى نيـل دعـم المجتمـع الـدولي لنيـل الاسـتقلال وإقامـة الدولـة «المدنية»؛ وبـين التيار الإسـلامي الـذي أصر على التمسـك باسـتراتيجية شـامل –رحمـه الله– القاضيـة بــ«قوقـزة» الـصراع تنظيمـياً وسياسـياً وعملياتيـاً، وقـد بلـغ الـصراع ذروتـه في العـام ٢٠١٠م حـين دعـا أحمـد زكاييف مقاتـلي إمـارة القوقاز الإسـلامية إلى الخضـوع لسـلطة «البرلمـان الشيشـاني» الـذي انتخبـه رئيسـاً لـوزراء الجمهوريـة في المنفى، معتـبراً أن الدعـوة إلى تطبيـق الشريعـة في البـلاد سـتلحق ضرراً كبيراً بشـعبها، حيـث سـيؤدي إلى تصنيفها على قوائـم الإرهـاب الدولية.

ويصـف أنـزور بـن إلـدار أسـتمر القيـادي في إمـارة القوقـاز الإسـلامية طبيعـة هـذا الخـلاف في مقدمـة بحثـه المعنـون «تحليـل أقـوال أحمـد زكاييـف»، والـذي كان ملحقـاً بقـرار المحكمـة الشرعية بالإمـارة فيـما يتعلـق بالحكـم الشرعـي لزعيـم التيـار القومـي؛ قائلاً:

"أحمـد زكايـف يقـول إن دولـة الشيشـان لا يمكـن أن تسـتقل إلا إذا اعترفـت بهـا هيئـة الأمـم المتحـدة. ويقـول إنـه للحصول على هـذا الاعـتراف ينبغي المحافظـة على قانونيـة الدولة التي تسـتمد شرعيتهـا مـن إرادة أغلبيـة الشـعب الشيشـاني المتمثلـة في الدسـتور والقوانـين التي وضعهـا البرلمان.

كـما يزعـم زكايـف أن تحكيـم الشريعـة الإسـلامية في الشيشـان سـيلحق ضرراً كبـيراً بالشـعب الشيشـاني.

فـإن جميع الإصلاحـات الشرعيـة في زعـم أحمد زكايـف ما هـي إلا تآمر على الشـعب الشيشـاني، ويزعـم أن روسـيا هـي التي وراء هذا التآمر. فقد ادعى الرجل أن روسـيا تسـتخدم رغبة الإسـلاميين

في تحكيـم الشريعـة لتمنـع الشـعب الشيشـاني مـن الاسـتقلال، ولتصنفه ضمـن ما يسـمى بالإرهاب العالمي ليسـهل عليها اسـتئصال هذا الشـعب.

وبنـاء عـلى هـذا الزعـم، رفـض أحمد زكايـف الاعـتراف بإمـارة دوكـو عمـر، ودعا جميـع مقاتلي القوقـاز إلى الدخـول في طاعـة ما سـماه بــ «البرلمان الشيشـاني».

ومقـر زكايـف منـذ بضـع سـنين في بلاد الغـرب، وهـو مطلوب في روسـيا لأنـه كان مـن قيادات المقاومة الشيشـانية سـابقاً، ثـم أصيب ونقل إلى الخـارج للعلاج. أمـا البرلمان الشيشـاني، فبعض نوابه قاتـل وقتـل في هـذه الحـرب، والبعض الآخـر أصبـح موالياً للاحتـلال الـروسي، أما الباقـون فمنهم مـن لـه نشـاط سـياسي ومن ليس لـه نشـاط. اثنا عـشر نائباً مقيمـون في بـلاد الغرب. وبعـض هؤلاء ومنهـم رئيـس «البرلـمان» جـلاء الديـن سرلابـوف تحالفوا مـع أحمـد زكايف، ثـم أعلنوا أنهـم أجروا عمليـة تصويـت بالهاتـف فانتخبوه رئيسـاً للوزراء فيما سـموه بــ «حكومة جمهورية الشيشـان».

وحـدث ذلـك بعـد صـدور بيـان أعلـن فيه أمـير مجاهـدي القوقـاز دوكـو عمـر براءته مـن جميع القوانـين الوضعيـة ورفض تسـمية دولته بــ «الجمهورية»، وأعلـن أن جميع أراضي القوقـاز التي فيها للمجاهديـن شـوكة تعتـبر ولايات في إمـارة القوقاز. كـما رفض دوكو عمر أن يتسـمى بــ «الرئيس»، وقـال إنـه والي الشيشـان وأمـير القوقـاز. وجميـع مجاهـدي القوقـاز قـد بايعوه عـلى الإمارة بعـد وفاة الأمـير عبـد الحليـم سـعد الله، وبعد صـدور البيـان أقر المجاهـدون أميرهـم وأيدوه.

أمـا زكايـف فإنـه لم يكتـف بعـدم الاعـتراف بإمـارة دوكـو عمـر، بل اتهـم الذيـن سـعوا في إلغاء الحكـم الجمهـوري الديمقراطـي في الشيشـان بالخيانـة. ورمى بعض الدعـاة وأمـراء المجاهدين بأنهم عمـلاء للاسـتخبارات الروسـية اسـتطاعوا اخـتراق صفـوف المجاهديـن ليهدموا دولة الشيشـان.

وبعـد هـذا كلـه طلـب الأمـير أبو عثـمان دوكـو عمر منـي بيان حكـم الله تعـالى في أحمـد زكايف، وبيـان ما يسـتحقه مـن العقوبة»

بـل وتصاعـد الشـقاق حتى ادعـى زكاييـف أن قـرار تطبيـق الشريعة الإسـلامية الذي تـم اتخاذه إبـان الحـرب الأولى وفـترة مـا بـين الحربـين، كان مخالفاً للدسـتور الشيشـاني، وإنـما اُضطـر أصـلان

مسخادوف إلى إصداره والتصديق عليه تحت ضغط الجناح «الراديكالي» بزعامة باساييف آنذاك تجنباً للحرب الأهلية.

ليعلن بعد ذلك صراحةً، أنه وبصفته رئيس وزراء منتخب من قبل البرلمان «الشرعي» للشعب الشيشاني سيعمل على تطبيق النظام العلماني في الجمهورية حال نيلها الاستقلال من الاحتلال الروسي.

لتصدر على إثر ذلك وغيره المحكمة الشرعية في إمارة القوقاز الإسلامية حكماً بردة أحمد زكاييف وخروجه من الملة الإسلامية.، حيث يقول أنزور بن إلدار أستمر في هذا الصدد:

".. من خلال ما تقدم تبين لنا أن الحكم الشرعي في أحمد زكايف: فهو زنديق مرتد عن دين الإسلام، فهو علماني خبيث وطاغوت من طواغيت العصر عداوته للشريعة الإسلامية وللموحدين قديمة".

أما على الصعيد الميداني فقد استمر منحنى العمليات العسكرية في الشيشان تحديداً وفي القوقاز عموماً في الاتجاه نحو الانخفاض في ظل الظروف سالفة الذكر.

فعلى الرغم من هجمات المجاهدين النوعية التي شملت تفجير خط السكة الحديدية بين أكبر مدينتين روسيتين (موسكو وسان بطرسبرج) عام 2007م والذي أخرج القطار تماماً عن مساره، واستهداف مترو الأنفاق في موسكو عام ٢٠١٠م، ووصول العمليات إلى مطار دومودوفو في موسكو ثاني أكبر المطارات الروسية عام ٢٠١١م، بالإضافة إلى حملة الاغتيالات الواسعة التي شملت رموز تيار «الإسلام التقليدي» عام ٢٠١٢م، وعملية فولغوغراد نهاية العام ٢٠١٣م، إلا أن ذلك لم يمنع تضييق الخناق على عنق الحركة المجاهدة.

وقد جاءت أحداث الجهاد الشامي لتستقطب قطاعات واسعة من كوادر إمارة القوقاز الإسلامية، والتي فضّلت الخروج من الطوق المحكم الذي فرضه الروس في الإقليم المحاصر للإعداد واكتساب القوة لمعاودة الكرّة مجدداً في أقرب فرصة سانحة، ما أضاف إلى الإمارة ضعفاً على ضعف.

وبعـد مقتـل الأمـير أبي عثـمان دوكـو عمـروف –رحمـه الله– في العـام 2013م ،وتـولي أبي محمـد الداغسـتاني مهـام الإمـارة، ضربـت فتنـة جماعة الدولـة أرجاء الشـمال القوقـازي لتفتت مـا تبقى من قـوة المجاهديـن، إلى أن قُتـل أبي محمد الداغسـتاني وخلفه أبي عثـمان الغيمراوي خلال أشـهر معدودة لتتـوارى الإمـارة جزئياً عـن الأنظـار إلى حين...

أما على الضفة الأخرى في جروزني فتلك قصةٌ أخرى..

لقـد كان رمضـان قاديروف الشـاب الذي قاتـل الروس في الحرب الشيشـانية الأولى قبـل أن يبلغ العشريـن مـن عمـره، والذي عمل سـائقاً لوالـده مفتي الشيشـان المعـزول، قبل أن يحكـم قبضته على المليشـيات التـي أسسـها والده قبـل مقتلـه، ليصبح قائـد المليشـيات القاديروفيـة والمعروفـة بلقب «؛ kadyrovtsy.“ الرجـل الأقوى في جـروزني

لقـد منعـه سـنه الصغـير يوم وفـاة والـده من اعتـلاء عرشـه حيـث أن الدسـتور الشيشـاني الذي صاغـه الـروس للنظـام العميـل يشـترط أن يكـون رئيـس الجمهوريـة يبلـغ من العمـر ٣٠ عامـاً على الأقـل، ولم يكـن « فتـى بوتـين المدلـل» قـد بلغها بعـد، وفي تلـك المرحلـة المبكـرة مـن الاضطرابات السياسـية للنظـام الوليـد كان بوتـين حريصـاً على إكسـابه قـدراً من الشرعيـة من خلال عـدم العبث بالدسـتور الـذي لم يكـن قـد مـضى عـلى إقراره سـوى سـنة ونيف.

فتـم الاسـتقرار على علو ألخانـوف وزير داخليـة قاديروف الأب ليخـوض الفـترة الانتقالية، ريثما يتأهـل أمير الحـرب الصغير لتـولي الأمور في جروزني رسـمياً.

لقـد قامـت العلاقة بـين رمضان قاديـروف وفلاديمير بوتين بشـكلٍ شـخصي على معادلة شـديدة البسـاطة والوضـوح؛ الثـروة مقابـل الخضـوع، السـلطة مقابل السـيطرة عـلى الوضع الأمنـي، النفوذ مقابل تأديـة المهـمات الموكلة داخليـاً وخارجياً.

كان لقاديـروف مكتسـبات واسـعة لم يحـظ بهـا أيٌ مـن تابعي موسـكو مـن رؤسـاء الجمهوريات في الداخـل الـروسي وشـمال القوقـاز، لكـن هـذه المكتسـبات فرضـت عليـه تأديـة أدوار أكـبر بكثير مـن موقعـه كأمـير حـرب في جمهورية صغيرة، وهـذا دليلٌ عـلى تفاوت درجـة التبعية وهامـش النفوذ

المسموح به من السيد باختلاف الأوضاع السياسية من حالةٍ إلى أخرى..

أما المكتسبات التي كانت ممنوحة من موسكو لرمضان قاديروف فيمكن الإشارة إلى أهمها في النقاط التالية:-

أ- إطلاق يد رمضان قاديروف -تحت إشراف الاستخبارات الروسية- في اغتيال وتصفية المنشقين عن نظام حكمه والذين يمثلون تهديداً لنفوذه في الداخل الشيشاني، وتحمّل التبعات والضغوط السياسية التي تُمارس على موسكو من الدول الغربية نتيجة هذه الاستهدافات؛ مثل عملية تصفية القائد العسكري سليم ياماداييف -الذي اشترك مع أحمد قاديروف في تسليم مدينة جوديرميس (ثاني كبرى مدن الشيشان) بداية الحرب الثانية ووضع حجر الأساس لمشروع الخيانة- بمدينة دبي في مارس 2009م، وكذلك اغتيال عمر إسرائيلوف الحارس الشخصي لرمضان قاديروف والقيادي في مليشياته الخاصة بفيينا في شهر يناير ٢٠٠٩م بعد أن قرر الانشقاق قبل ذلك بثلاث سنين وفضح ممارسات قوات جروزني «الوحشية» تحت مظلة «مكافحة الإرهاب».

ولم تتوقف سلسلة الاغتيالات على المنشقين البارزين من قوات قاديروف، بل امتدت إلى المدونين الذين يفضحون ممارسات نظام جروزني، ويكشفون خيوط عملياته القذرة، وفي أحدث تلك العمليات تمكن قاديروف من اغتيال «الناشط» الشيشاني اللاجئ في فيينا مامي خان أماروف في يوليو ٢٠٢٠م بعد نشره لمقطع يتحدى فيه قاديروف ليرسل من يقتله، حيث كان يتعاون مع الدوائر الاستخبارية الغربية في كشف مخططات قاديروف القذرة مثل محاولة اغتيال أحد أعضاء البرلمان الأوكراني إبان الحرب الروسية الأوكرانية بين عامي 2014م و 2015م.

ب- السماح بتبني بعض المواقف، واتخاذ بعض القرارات التي لا تسمح روسيا بمثلها في أيٍ من مكونات نظامها الاتحادي، فقد أصدر رمضان قاديروف قراراً في العام ٢٠٠٦م بفرض ارتداء الحجاب على النساء داخل المؤسسات الحكومية، وفي نفس العام سن قانوناً يجرّم القمار وتناول المشروبات الكحولية؛ بل وعندما نشرت المجلة الدنماركية الرسوم المسيئة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، اتهم قاديروف الدنماركيين بالإرهاب، وقال أن رسام الكاريكاتير الذي ارتكب هذه الجريمة يجب أن يُحرق حياً!!

لقد كان قاديروف حريصاً ومن قبله موسكو على الظهور بمظهر حامي الإسلام، والمحافظ على التقاليد الشيشانية لامتصاص -ولو جزئيا- أي غضبٍ محتمل ناتج عن تبعية النظام لموسكو في الأوساط الشعبية التي يمكن خداعها مرحلياً بمثل هذه التكتيكات، حيث تعلمت موسكو جيداً من سياساتها خلال العهد القيصري والشيوعي أن مصادمة هذا الجزء من القوقاز تحديداً صداماً مباشراً في شعائره الظاهرة تخلّف انتفاضات متتالية يصعب السيطرة عليها.

ج- السماح لقاديروف بتوسيع نفوذه في شمال القوقاز على حساب جيرانه الضعفاء؛ ففي منتصف العام ٢٠١٨م وبحجة تطوير البنية التحتية، بدأ قاديروف توسيع الطريق الجبلي المتهالك الذي يصل الشيشان بجمهورية إنجوشيا، ليتفاجأ الجميع بظهور صور لقادة في نظام قاديروف محاطين بأفرادٍ من مليشياته الخاصة معلنين أن ما يقارب ١٠٪ من الأراضي الإنجوشية صارت تحت سيطرة جروزني.

ليصبح الضم رسمياً بحلول سبتمبر بعد أن أجبر الكرملين رئيس جمهورية إنجوشيا يونس بك يفكوروف على توقيع اتفاق ثنائي مع قاديروف برعاية فلاديمير بوتين يقضي بالاعتراف بالتخلي عن ذلك الجزء من أراضيه.

ذلك فضلاً عن الأطماع المتزايدة لقاديروف تجاه جمهورية داغستان التي تحد بلاده من الشرق، والتي يسمح بها المركز طالما أن أمير الحرب يؤدي كافة مهامه بكفاءة.

ء -السماح باستيلاء قاديروف على المخصصات المالية التي تأتي من موسكو لدعم الميزانية الشيشانية والتي تبلغ نسبتها حوالي ٨٥٪ من ميزانية الجمهورية ما بعد الحرب، حيث يستخدمها قاديروف بجانب إثرائه الشخصي في شراء ولاء قادة مليشياته وأفرادها لضمان استدامة دعمهم المطلق لنظام حكمه.

وعلى الرغم من كون هذه السياسة قد أدت إلى نسبة بطالة قياسية تبلغ ما يقارب ٧٠٪، وانهيار في المرافق في غالب مناطق الدولة حيث لا يستطيع الكثير من السكان الحصول على المقومات الاساسية للحياة من غازٍ أو كهرباء، وارتفاع قياسي في نسبة السكان الذين يقبعون تحت خط الفقر، وهجرة الكثير من أبناء البلد إلى الخارج أو إلى مدن الداخل الروسي هرباً من

الضغـط الاقتصـادي والأمنـي؛ إلا أن موسـكو لا تنوي في المسـتقبل القريب تغييرها مـادام قاديروف قـادرٌ مـن خلالها عـلى كبـح جمـاح أي «تمـرد» محتمل.

هـــ – السـماح لقاديـروف بالتعامـل مـع الشـعب الشيشـاني باعتبـاره المرجـع الوحيـد، والأب الجامـع لجميـع مكوناتـه السياسـية والقبليـة والفئويـة، حيـث أنه مـن غير المسـموح تخطيـه في أيٍ من المسـائل السياسـية أو الاقتصادية أو الاجتماعيـة أو حتى الثقافية والعرفيـة، وإن كان هذا التخطي نحو « السـيد» بوتـين ذاتـه، ومـن يخالف تلـك القاعـدة ينزل بـه العقـاب الرادع.

ومـن الأمثلـة الدالـة على هذا المبـدأ، ما وقـع لــ"المواطن" الشيشـاني رمضـان تزالالدينوف الذي يسـكن إحـدى القـرى الجبليـة، حينما قام بتسـجيل مقطع مصـور يطالب فيـه الرئيس بوتـين بالتدخل لتحسـين الوضع المؤسـف الـذي تعيش فيه قريتـه، منتقداً سـوء إدارة نظـام جروزني.

وبعـد أن تلقـى تزالالدينـوف تهديـدات بالقتـل فـر إلى جمهوريـة داغسـتان المجـاورة، لتقتحـم مليشـيات قاديـروف القريـة وتـضرم النـيران في بيته، ثم تسـتجوب سـكان القرية عن مـكان اختبائه، ليتعـرض بعـد ذلـك إلى محاولـةٍ لاختطافـه داخـل البلـد الـذي لجـأ إليه.

ليضطـر بعـد ذلـك إلى تقديـم اعتـذارٍ علنـي لقاديـروف، راجياً إيـاه أن يغفـره له «الخطـأ الكبير» الـذي وقـع به عن غـير قصد، محـذراً الجميع مـن معارضة الرئيـس الشيشـاني؛ فتكرّم عليـه قاديروف وسـمح له بالعـودة إلى قريته!!!

ونظير هـذه المكتسـبات وغيرهـا الكثـير التي يطـول المقام عـن ذكرها، يـؤدي قاديروف عـدداً من المهام لصالح موسـكو بجوار مهمته الرئيسـية في إحكام القبضـة الحديدية على الجمهوريـة الثائـرة؛ ويمكـن الإشـارة إلى أبرز هـذه المهام من خلال النقـاط التالية:-

أ- تنفيـذ عمليـات الاغتيـال وخاصـة الداخليـة التـي لا يرغـب بوتـين في تلويـث يديـه بهـا، من خـلال اسـتهداف الدوائـر الصحفيـة والسياسـية التـي تعـارض تحـركات بوتين سـواء على المسـتوى الداخـلي أو الخارجـي.

ومـن أبـرز الأمثلـة عـلى اسـتهداف الدوائـر الصحفيـة، اغتيـال الصحفيـة الروسـية المعارضة آنا

بوليتكوفسكايا في السابع من أكتوبر عام ٢٠٠٦م في مصعد البناء الذي تسكنه في موسكو، بعد أن أطلق عليها عميل سري تابع لقاديروف أربع رصاصات أردتها قتيلةً على الفور، تاركاً المسدس بجوار جثتها كرسالة تهديد.

كانت آنا بوليتكوفسكايا تعمل منذ بدء الحرب الشيشانية على فضح الممارسات الوحشية للجيش الروسي والتي يمارسها تحت ستار «عملية مكافحة الإرهاب»، كما انتقدت مطولاً اختيار بوتين لقاديروف كرئيسٍ لوزراء الشيشان باعتباره "معتوه بالكامل، محروم من التعليم والعقل، أو من أي موهبة تميزه سوى الفوضى والسرقة العنيفة".

ولزيادة الإمعان في الإهانة أمر بوتين قاديروف بإطلاق اسم الصحفية القتيلة على جزء من الشارع الرئيسي في جروزني كنوعٍ من الاستهزاء بدعمها للقضية الشيشانية، والتباهي بالتخلص منها .

أما بالنسبة للدوائر السياسية، فربما كان الحدث الأبرز هو اغتيال بوريس نيمتسوف السياسي الروسي والمسؤول الحكومي السابق بالقرب من الساحة الحمراء وسط موسكو في فبراير عام ٢٠١٥م.

كان نشاط بوريس نيمتسوف المتزايد في توثيق فساد الطبقة الحاكمة وخاصة فيما يتعلق بملف النفط والغاز، وكذلك سعيه الدؤوب لجمع الأدلة على مشاركة مقاتلين روس في الحرب الدائرة آنذاك شرقي أوكرانيا في الوقت الذي ينفي فيه الكرملين ذلك، في سبيل حث المجتمع الغربي على تشديد وطأة الضغط والعقوبات الموقعة على نظام الحكم في موسكو والتي كان يصفها بغير الكافية؛ يشكّل صداعاً مؤرقاً لفلاديمير بوتين الذين لم يكن يحتمل مثل هذا الصداع في ذلك الوقت العصيب الذي كان يمر به، فأمر تابعه في القوقاز بتنفيذ العملية القذرة دون أن يخضب يديه بالدماء.

ب- استخدام مليشيات قاديروف ومؤسساته «الخيرية» كجسر نحو توسيع وترسيخ النفوذ الروسي في البلدان "الإسلامية".

فبعـد حـرب العـام ٢٠٠٦م في لبنان أرسـل فلاديمير بوتين كتيبة تابعة لمليشـيات قاديـروف لتأدية مهـام حفظ السـلام بهدف وضـع قدم في البلـد التي لم تكن يومـاً في دائرة النفـوذ الروسي.

وفي سـوريا، فقـد اسـتخدم الكرملـين قـوات قاديـروف في شـكل شرطـةٍ عسـكرية تعمـل عـلى امتصـاص غضـب وسـخط السـكان المحليـين في المدن السـورية بعـد تدميرهـا والسـيطرة عليها، من خـلال منـح تلـك القـوات «المسـلمة» الحريصـة عـلى أداء فرائـض الديـن مثـل الصلاة بشـكل علني صلاحيـات جزئيـة لردع قـوات الجيـش النصيري عن ارتـكاب التجـاوزات ضد أهل البـلاد المتعبين مـن أثر الحـرب؛ وبالتالي ترسـيخ صورة روسـيا كدولـةٍ متسـامحة توفر مظلـة الحماية للضعفـاء في زمن الحرب!!

وعـلى صعيـد المؤسسـات الخيرية، فقـد حرص بوتين عـلى جذب تأييـد البنية المجتمعيـة في مناطق سـيطرة النظـام النصـيري مـن خـلال تفعيل العمـل الإغاثـي المعتمـد إلى جـوار الجمعيات الروسـية التقليديـة عـلى «مؤسسـة أحمـد قاديـروف» التـي ترأسـها نيسـيفنا قاديروفـا والـدة حاكـم جـروزني، و»مركـز تنسـيق شـؤون مسـلمي شـمال القوقـاز» ، وهـي المؤسسـات التـي تُعد غـير دخيلة بالنسـبة لقطاعـات مـن المجتمـع المحـلي كونهـا تقدم مسـاعدات «إسـلامية» غير ذات غـرض؛ وقد بلـغ تأدية هـذا الـدور الـذروة حينـما تـبرع رمضـان قاديـروف بمبلـغ ١٤ مليـون دولار لإعـادة إعمار المسـجد الأمـوي الـذي دمـره «الإرهابيـون» في حلب عـام ٢٠١٦م.

ج- اسـتخدام قاديـروف كجسر عبورٍ فكري لتسـويق النموذج الروسي لــ“الإسـلام التقليدي“، مـن خـلال التعـاون مـع الـدول «الإسـلامية» التي تتشـارك مع موسـكو في الإيـمان بضرورة تسـويق هـذا النمـوذج الخاضـع لأنظمة الحكـم، وبناء وتمديـد النفوذ الـروسي في تلك الدول مـن خلال ذلك التعاون.

ولعـل المثـال الأبرز عـلى ذلك كان مؤتمر جـروزني عام ٢٠١٦م الذي شـهد حضور شـيخ الأزهر ومفتـي مـصر، وعـدد مـن علماء الحـكام ، ورمـوز الصوفيـة حول العـالم؛ والـذي أُختتـم بمخرجاتٍ مفادهـا اسـتبعاد «الإخـوان المسـلمين» والسـلفيين» و»الوهابيـين» مـن مظلـة أهـل السـنة والجماعة، التـي اقتـصرت وفقاً للبيـان الختامي عـلى الصوفيـة والماتريدية والأشـاعرة!!!

وعلى جانبٍ آخر، يستخدم قاديروف هذه المؤتمرات والسياسات كغطاء لتثبيت شرعية سلطته المحلية من خلال دعم «علماء المسلمين» لنموذجه «الإسلامي».

ء- استخدام قاديروف في تعزيز مسار التعاون العسكري مع الدول «الإسلامية» التي تشترك مع موسكو في رؤية العداء الجذري لكافة أطياف الإسلام السياسي، حيث يُعد التعاون العسكري خطوة ممهدة لتوسيع النفوذ الروسي في تلك البلاد.

وأبرز مثالٍ على ذلك، قيام قاديروف حديثاً بإنشاء مدرسةٍ عسكرية لتدريب القوات الخاصة على عمليات مكافحة الإرهاب، حيث يتركز التدريب على مقاتلين من السعودية والإمارات والبحرين والأردن، حيث العامل المشترك بين جميع الدول التعامل الاستئصالي مع كافة التنظيمات الإسلامية من مختلف التيارات باستثناء الأردن التي لها وضع خاص مع تنظيم الإخوان المسلمين.

هـ- استخدام قوات قاديروف للقتال في ساحات المعارك التي تحارب فيها موسكو بشكلٍ غير معلن وغير رسمي، من خلال التشارك مع قوات شركة «فاجنر» وأفراد الجيش الذين يقاتلون تحت غطاءٍ مموه في تحقيق المصالح الروسية في تلك المناطق، ولعل الحرب الأوكرانية خير مثالٍ على ذلك..

وصحيحٌ أن قوات قاديروف دعمت الجيش الروسي في الحرب الجورجية عام ٢٠٠٨م، وهي حرب نظامية رسمية خاضها الجيش الروسي بشكلٍ معلن، إلا أن هذا الأمر يبقى صعب التكرار مستقبلاً لما كان لهذه الحرب من خصوصية متعلقة بترهل الجيش الروسي الذي تم إعادة هيكلته بعد الانتهاء من معاركها..

ولعل هذا النموذج القاديروفي الذي مررنا عليه سريعاً ألهم «جولانوف» المسمى بأبي محمد الجولاني لإعادة استنساخه في الشمال السوري عند تعامله مع حكام الأناضول..

فمقابل تفتيت وحدة الجماعة الجهادية الأكبر في البلاد (جبهة النصرة)، وفك ارتباطها عن «الإرهاب الدولي»، وتسهيل أو على الأقل الصمت على استهداف الرموز الكبيرة التي يُتوقع منها

معارضة المشروع «الجولانوفي»، وتحويل الأيدولوجية العامة للجماعة تدريجياً باستغلال الأحداث نحو القطرية الضيقة، وتشكيل قطاعات داخل الجماعة جاهزة لتنفيذ كافة أشكال المهام القذرة لا تدين بالولاء لغير «الشيخ» المفدى، وتمرير الاتفاقيات الدولية على الأرض بكل سلاسةٍ بعد التضحية في المعارك المعدة مسبقاً بخيار المقاتلين الذين يمكن أن يسببوا إزعاجاً مستقبلياً، وإزالة العوائق المتمثلة بالكيانات الرافضة لهذا التمرير من خلال حربها أمنياً وإعلامياً وعسكرياً وصولاً إلى الإضعاف والتفكيك، وتشكيل «دار إفتاء» خاصة لقولبة المواقف الخيانية في قالبٍ شرعي، ومنع انسياح الحالة الجهادية إلى خارج مناطق سيطرته والتي تجلت في إصراره على منع الشيخ أبي جليبيب الأردني -رحمه الله- من الذهاب إلى درعا عدة مرات بقوة السلاح..

في مقابل ذلك وغيره الكثير؛ فُتحت كنوز المعابر على مصراعيها بغير حسيبٍ ولا رقيب، وصارت حصته في أموال الإغاثة معروفة معلومة لا يتجاوزها أحد كائناً من كان، وغُض الطرف عن قضائه على شركائه من التابعين وتمديد نفوذه على حسابهم، وسُمح له ولو مرحلياً بتأجيل قضية حلفائه من «المهاجرين» حتى ينتهي من استخدام ورقتهم، وصولاً إلى التنصيب المنتظر كحاكمٍ بغير منازع لتلك الضيعة الباقية بعد اكتمال خلع كامل ثياب الزور.

إن المشروع «الجولانوفي» هو انعكاسٌ للواقع القاديروفي في الشام...



المحور السادس

عودةٌ إلى الشام

كيف نُلدغ من ذات الجحر ثانية بعد سنين قلائل؟

بل كيف تأتي اللدغة من داخل الجسم الصلب للحركة الجهادية دون حراك؟

لقد أُتي المجاهدون في الشيشان من قبل خطأ بنيوي في استراتيجيتهم العامة للمعركة يوم كانت الظروف ضاغطة، والأحداث متلاحقة؛ وعلى الرغم من النجاح الباهر في العديد من المسارات السياسية والعسكرية والشعبية، إلا أن خطأً واحداً قاتلاً أودى بالساحة بكاملها إلى الهاوية.

وكان على الحركة الجهادية العالمية ساعتئذٍ أن تتعلم الدرس القاسي الذي خُطت معانيه بالدماء، ورسخت ذكراه في النفوس بمشاهدة نظام جروزني العميل يزداد بطشاً يوماً بعد يوم.

لقد كان جديراً بالحركة الجهادية أن تحصّن نفسها مما وقع فيه إخوانها وجنودها في القوقاز، خاصة بعد أن نضجت الخبرة في هذا المجال بتجارب اختراق الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، وشيخ شريف شيخ أحمد في الصومال، وآل قاديروف في القوقاز.

وكان الأجدر قبل أن تفكر في وضع استراتيجية للتعامل مع المشاريع الخيانية التي تأتي من خارج الجسد الصلب للمجاهدين، أن تحصّن قلاعها الداخلية من أي اختراقٍ أو ضعف يكرر المآسي الغابرة.

ففي العام ٢٠١٠م، وعندما قُتل الشيخان (أبو عمر البغدادي وأبو حمزة المهاجر) في صحراء الأنبار بادرت دولة العراق الإسلامية يومئذٍ إلى تعيين أبي بكر البغدادي –المجهول عند خراسان– أميراً عاماً للتنظيم دون استشارة القيادة العامة، وهو ما أثار قلقاً عند الشيخ أسامة بن لادن –رحمه الله– ولكنه قدّر أن الظرف الضاغط في العراق لا يحتمل التأجيل أو مراجعة القرار، فقرر

إقـرار ولايتـه لمدة عام مـع الأمر بإرسـال معلومـات عنـه، وتزكيات الأخيـار له.

لقـد سـبّب القـرار خرقـاً اسـتراتيجياً نعـاني منـه إلى اليـوم، فمعلـومٌ أن دولـة العراق الإسـلامية كانـت تسـتحوذ عـلى هامـشٍ واسـع للقـرار بعيداً عـن المركز بسـبب ظـروفٍ عـدة يطول المقـام عن ذكرهـا، وبالتـالي كان إقـرار أمـيرٍ جديـد لمـدة عـام دون الاسـتيثاق منه يحمـل احتمالات بطـول تلك المـدة عـن المقـرر خاصـة في ظل مـا تشـهده الحالـة الجهادية مـن تقلبـات، فتفضيـل المصلحـة قصيرة الأجـل أو متوسـطة الأجـل عـلى مصلحـةٍ اسـتراتيجية طويلـة الأجل خطـأ فـادح..

وقبـل انـصرام العـام أو ربـما بعـد انصرامـه بقليل، تمكـن الصليبيـون من تنفيـذ غارتهـم في أبوت أبـاد وقتـل الأمير العـام لتنظيـم قاعـدة الجهاد.

إن مقتـل الشـيخ برمزيتـه الهائلـة، وقدرتـه عـلى التأثـير في الفـروع مـن خـلال مكانتـه عنـد عامة المسـلمين قبـل عامـة الجنـد والقـادة؛ أفقـد الجماعـة سـلاحٌ مهـم في السـيطرة عـلى أي انحـرافٍ قـد يصيـب بعـض الـرؤوس.

وتعميقـاً للخطـأ الاسـتراتيجي، لم تخـطُ القيـادة الجديدة بإمـارة الشـيخ الدكتور أيمـن الظواهري –حفظـه الله– الخطـوة التـي كان قـد قررهـا الشـيخ الشـهيد بمراجعة تعيـين البغدادي بعـد انتهاء مدة ولايتـه، واسـتمر عـلى رأس العمـل في دولـة العـراق الإسـلامية في ظـل حالـةٍ مـن التمـدد يشـهدها التنظيـم بعـد فـترة التراجـع التي بـدأت بظهـور الصحوات.

إن عـزل الأمـير مـع كفاءتـه الظاهـرة لمصلحـةٍ راجحة سـنة راشـدية عمرية، فلـم يأتِ ربـما قائد عسـكري في التاريـخ بذات كفـاءة خالد بن الوليـد –رضي الله عنـه–، وفي غمرة انتصاراتـه وفتوحاته عزلـه أمـير المؤمنـين عمـر بن الخطـاب عن إمـارة الجند كـي لا يُفتن المسـلمون بـه فيظنـون أن النصر مـن عنـده لا مـن عند الله، بعـد أن انتشرت بين المسـلمين مقولـة مفادها أنـه لا يُهزم جيـشٌ فيه خالد.

ألم تكـن مصلحـة تحصين النـواة الصلبة للحركـة الجهادية من التمـرد أو الخيانة وهي لبنة أساسـية للنجـاح الاسـتراتيجي، مقدمـةً على نجاحٍ آني لا يمثل سـوى فـترةٍ عابرة من الكفاح الجهـادي الممتد.

ففـي العـام ٢٠١١م أرفـد أبـو بكـر البغـدادي أحـد جنـوده بالمـال والرجـال لدعم المسـلمين في

ثورتهم على الطاغوت النصيري، فأعلن أبو محمد الجولاني عن «جبهة النصرة لأهل الشام»، ليتضاعف الخطأ الاستراتيجي.

لقد صار على رأس الإمارة الجهادية في العراق والشام من لا تُؤمن غائلته..

وفي العام ٢٠١٣م وبعد أن ارتفعت وتيرة الانتصارات الجهادية للثورة الشامية، حيث كان لجبهة النصرة المساهمة الكبرى؛ بدأ الصراع على المغنم يشتعل في النفوس..

فالأمير في العراق بدأ يلمح نوازع نحو الاستقلال في الجندي الذي أرسله قبل سنتين ليشكّل امتداداً للساحة العراقية في الشام، والجندي في الشام وقعت في نفسه الإمارة والرياسة كل موقع، وهكذا كان الصدام أول الأمر..

فالبغدادي بعث برجاله للإشراف على عمل جنديه السابق في قيادة الجبهة خوفاً من الخروج عن سطوته وسلطته خاصة أنه كان محاطاً ببعضٍ ممن جرت دماء الشك في عروقهم من الضباط البعثيين التائبين، وفي المقابل بدأ يشعر الأمير الصغير في الشام بسلطته يتهددها الخطر، وبعد مساجلات ومناوشات تم الاتفاق على رفع الأمر للأمير العام في خراسان والذي لم يكن أحد الطرفين بموضع كامل الثقة عنده!!

وأتى قرار الأمير العام لقاعدة الجهاد بتثبيت الوضع على ما هو عليه، وإقرار كلٍ منهم على إمارته مع عودة البغدادي إلى العراق ليقوم بشؤونها التي تحتاج طاقات إضافية مع طاقة تنظيمه للقيام بأعبائها....

قرارٌ سديد لو لم يُرتكب الخطأ الاستراتيجي ويُعزز قبل بضع سنوات؛ فلو كان ذلك القضاء موجهاً إلى أبي مصعب الزرقاوي –رحمه الله– الذي بايع الشيخ أسامة من موضع قوة واستغناء جمعاً لشتات المسلمين لقال على الفور سمعاً وطاعة، ولو كان مرسلاً إلى أبي بصير الوحيشي –رحمه الله– الذي عرض التنازل عن الإمارة للشيخ أنور العولقي –رحمه الله– كونه يراه أكفأ منه لولا أنه رده الشيخ أسامة عن ذلك لكانت الأمور في نصابها إلى اليوم؛ لكن القرار اُتخذ بعقلية التعامل مع الرعيل الأول، لا من خلّفوا وراءهم من الحطمة..

جـاء القـرار مناسـباً للأمـير الصغير في الشـام، مُضعفاً من سـلطة أمـير العراق؛ فـما كان من الأول إلا القبـول لمصلحتـه الشـخصية حيـث أراد الاحتـماء بشرعيـة خراسـان للحفـاظ عـلى كرسـيه، وما كان مـن الثـاني بعـد مشـورة بطانـة السـوء إلا فتح بوابـة الانشـقاق والتكفير الـذي بدأ سياسـياً بداية الأمـر حتـى صـار عقيـدة راسـخة في جماعته يـضرب بعضهـا رقاب بعـض لكثـرة التقلب بـين عقائد الخـوارج الذيـن برزوا وسـيطروا على المفاصل الرئيسـية بعـد أن كانوا محارَبين، أو مسـتخفين ببدعتهم في أحسـن الأحوال..

لكـن هـل تـم تدارك الخطـأ وعُزل أبو محمـد الجولاني، ليُؤتـى بالثقة الـذي لا ينتطـح حوله عنزان لسدة القيادة؟؟

لا، بل زادت القيادة العامة الخطأ الاستراتيجي عمقاً بتثبيت الجولاني على إمارة جبهة النصرة!!

وبعـد أن اسـتفاد مـن عبـاءة المجاهديـن بدأت بـوادر حب الملـك تظهر عـلى الأمير الشـاب، فبدأ باسـتبعاد وتهميـش دور أكابـر المجاهديـن وأصحاب السـبق من أمثال الشـيخ أبي فراس السـوري – رحمـه الله– لصالـح مجموعـة مـن الأغـرار المقربين المشـاركين لـه في طموحه الشـخصي؛ وعـلى الرغم مـن الإشـارة علنـاً وسراً إلى هـذا النهج الفاسـد، الذي ينبـئ بعواقب السـوء، لم يُتخذ قـرار يضع حداً لهذه المأسـاة من الفشـل الاسـتراتيجي..

وبـدلاً مـن أن تُوضـع مسـؤولية إدارة الملـف في يـد مـن لا يمكـن خداعـه واسـتقطابه بمعسـول الـكلام، الفطـن بألاعيـب السياسـة والإمـارة، فُـوّض الملـف لمـن لا يقـدر عـلى إدارته –على سـابقته العظيمـة وقـدره المحفـوظ– لظـروفٍ ذاتيـةٍ وموضوعية..

وبعـد أن أزاح الطـيران الصليبـي العقبـة تلـو العقبـة من طريقـه، واسـتمال أمير الحـرب من يظن فيهـم القـدرة عـلى عرقلتـه إلى صفـه بالمخادعـة والمراوغة، اسـتغل حصار المسـلمين في الحلـب ليعلن عـن فـك الارتبـاط بالقيـادة العامـة لــ»الإرهاب الـدولي» اعتماداً عـلى شرعية من اسـتمال...

وبـدلاً مـن اتخاذ قـرارٍ فوري بإعـلان عزل ناكـث البيعة من منصبـه، وتعيين من يرضى المسـلمون دينـه وأمانتـه وقوتـه على رأس الإمـارة؛ فُضّلـت من جديـد مصلحة اسـتراتيجية أقل أهميـة تتمثل في

عـدم إظهـار المجاهدين أمام الأمة بمظهـر المتصارعين على السـلطة، على مصلحةٍ اسـتراتيجيةٍ عظيمة تتمثـل في الحفـاظ عـلى ثغرٍ قاتل المسـلمون العقـود الطوال للوصـول إليه تحت ظلال سـيوفهم..

وتوالـت الاغتيـالات لمـن أعطـوا الغطـاء الشرعـي –عن حسـن نيـة– لنكـث البيعـة دون حراكٍ فاعـل مـن القيـادة، اللهـم إلا بعـض الإشـارات غـير المبـاشرة مـن هنـا، وبعـض التلميحـات غـير الصريحـة مـن هنـاك، ودون وجود اسـتراتيجية محكمة للتعامل مـع الوضع حتى تجـذر الباطل بجذورٍ عميقـة أرجعـت المـشروع الجهـادي في الشـام سـنين إلى الـوراء وإن لم تقضِ عليـه بالكلية بـإذن الله.

ليُلدغ المؤمنون من ذات الجحر مرتين...

من قاديروف في القوقاز إلى جولانوف في الشام..

خاتمة

خُطّت هذه الكلمات –ولله الحمد– في غير سعةٍ من الوقت أو الأمن، غير أني أردت بهذا المرور العابر الذي لم يغطِ إلا بعض الجوانب اليسيرة من مدرسة الجهاد الشيشاني، التذكير بضرورة تفعيل نهج المراجعة والتقييم والتدارس تمهيداً لتصحيح وتصويب المسير.

إن التجارب الجهادية التي خاضتها الأمة في عقودها الأخيرة تنضح بالدروس والعبر والفوائد التي إن استمررنا في تجاهلها وقعنا في ذات الفخ كلما نُصب لنا.

لذلك لابد أن يصبح التقييم الاستراتيجي الدوري جزءاً من بناء الجماعات المجاهدة والحواضن المسلمة الداعمة، وهو لا يعني بأي حال التعدي على مكانة شيخ شابت في الجهاد لحيته، ولا أمير أناله الله الشهادة على يد عدوه، بل إن مكانة هؤلاء الجبال محفوظة في نفوس المسلمين لا ينكرها إلا جاهلٌ خبيث النفس، ولطالما كانوا أول المتقبلين للنصح من عوام المسلمين وخواصهم.

ومن جانبٍ آخر، فإنه من الواجب على هذا الجيل أن يترك تجربته سهلة الإتيان، عذبة المورد، ينهل منها الخلف وقتما شاءوا؛ فأمانة التبليغ واجبة على كلٍ بحسبه، وكما وجدنا العمالقة ممن سبقنا على هذا الدرب قد تركوا لنا مكتبةً ضخمة شكلت فكرنا الذي نسير عليه في حياتنا اليوم، كان علينا ألا تنقطع هذه السلسلة المباركة على أيدينا، وإلا عاشت الأجيال من بعدنا تشكو إلى الله تفريطنا في الأمانة.

اللهم انصر من نصر دينك، ورفع راية شريعتك؛ اللهم واقصم من ظاهر الكفار على المسلمين، واكشف ستره، وأرح البلاد والعباد من شره؛ اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور، ومن الردة بعد الإيمان بك.

بقلم

عدنان حديد حفظه اللّه

مؤسسة بيان للإعلام الإسلامي

ذو الحجة ١٤٤٠ للهجرة الموافق لـ تموز ٢٠٢٠




هيئة
تحرير الشام
لمواجهة التطورات الميدانية